تاريخ ما أهمله التاريخ

مصر الأقدمين





الكتاب الماسي

تاريخ ما أهمله التاريخ
مصر الأقدمين

حبيب جاماتي

اهداء

الى أرواح العلماء الباحثين ، سواء اكانوا من العرب الأقربين ، ام من الاغراب الابعدين ، الذين اكبوا على التاريخ الذى ليس له بين تواريخ الامم فى الشرق والغرب مثيل : تاريخ مصر الفارق فى القـــدم ، ونيلها المبـــارك ، وشـــعبها العريق يستطلعون خفاياه ، ويفكون رموزه ، ويستجلون غوامضه ، ويساهم كل منهم فى مجال اختصاصه، فى ترتيب احقابه ، وتنســـيق وقائعه ، اهدى هذه الحفنة من الاقاصيص ، التى تمتزج فيها الحقيقة بالخيال ، تحية متواضعة لذكراهم ، واعترافا بجميلهم ، واقرارا بفضلهم ، فى تدوين اضخم مصنف لاقدم مدنية عرفها البشر !

م . ع .



تصدير

يجد القارىء فى هذا الكتاب مجموعة اخرى من الأقاصيص المستخلصة من « هوامش » التاريخ . فالتاريخ سلسلة متواصلة الحلقات من الأقاصيص ، فيها الفواجع ، وفيها المآسى ، وفيها المهازل. والانسان اليوم هو الانسان بالأمس ، فضائله هى هى ، وعيوبه هى هى، والعبر التى نستمدها من وقائع التاريخ لا تقل فى روعتها عن العبر التى نستمدها من حوادث الحياة اليومية فى مجتمعنا العصرى

فهذه الأقاصيص ، كما قلت فى مقدمات سابقة ، فيها تسلية ، وفيها درس !

وقد أصدرت « الدار القومية للطباعة والنشر » حتى الآن ، فى «الكتاب الماسى » خمس حلقات من سلسلة الأقاصيص التى جعلت لها عنوانا شاملا : « تاريخ ما اهمله التاريخ » . والحلقات التى صدرت من قبل ، هى :

١ ـ الحلقة الأولى بعنوان : « بطولات عربية »

٢ ـ الحلقة الثانية بعنوان : « الناصر صلاح الدين »

٣ ـ الحلقة الثالثة بعنوان : « مصر مقبرة الفاتحين »

٤ ـ الحلقة الرابعة بعنوان : « اندلس العرب »

٥ ـ الحلقة الخامسة بعنوان : « الجنة فى ظلال السيوف »

وها هى ذى الحلقة السادسة يضمها « الكتاب الماسى » بعنوان: « مصر الأقدمين » وبها عشرون قصة مصرية ، وقعت حوادثها فى عهود الفراعنة ، بطيبة ومنف ، وعهد البطالسة بالاسكندرية ، وفى خلال الاحتلال الرومانى الذى سبق الفتح العربى ببضعة قرون .

ووقوع حوادث هذه الأقاصيص فى العصور التى ذكرتها يفسر العنوان الذى وضعته لها : « مصر الأقدمين » .

ان الشعوب التى لها حاضر تعمل فيه لتأمين مستقبلها ، والتى ليس لها ماض تفاخر به ، تكثر من التغنى بقول القائل : « يا سعد أمة ليس لها تاريخ ! » وتحرف هذا القول أحيانا فتجعله : « يا سعد أمة ليس لها مشكلات ! » وذلك باعطاء كلمة « ايستوار » الفرنسية أحد المعنيين : « تاريخ » أو « مشكلة » .

ولكن هذا القول ، أيا كان المعنى الذى يؤديه ، لا ينطبق على الأمم الشرقية عامة ، ولا على الشعب المصرى ووطنه بصورة خاصة .

وعلى هذا ، فليس له مكان فى لغة التخاطب او فى لغة الكتابة فى هــذا الجزء من العالم ، والشــعب المصرى يباهى بتــاريخه ، ويفاخر بماضيه ، ولا يتهرب من مواجهة الشــكلات التى تعترضــه فى تطوره الحاضر ، والمتاعب التى تثيرها فى طريقه الدسائس الخارجية ، والمطامع الامبريالية .

وهو يقول ويردد ولا يبالى :

« يا سعد امة لها تاريخ ! » أو : « يا سعد امة لها مشكلات ! » فالتاريخ الطويل الذى عاصر الدهر وواكبته الاجيال ، انما هو مصدر قوة وعامل اعتزاز ، والمشكلات مهما تتعدد وتتكاثر ، انما من شــأنها أن تشحذ الهمم وتحث على العمل ، لجعل المســتقبل زاهرا وجــديرا بالماضى العظيم !

حبيب جاماتى

القاهرة

ربيع الآخر سنة ١٣٨٢

سبتمبر ــ ايلول سنة ١٩٦٢

طيف نيتوكريس

كان انتقامها من أعدائها رهيبا ، فراحت في النهاية ضحيته ، ولا يزال طيفها يحوم حول الأهرام !



الملكة نيتوكريس تقيم حفلة صيد على
النيـــل يوم تسـلمها العـــرش
(للمصور هانى ماكارت)

المدينة الضخمة ساكنة هادئة ، على ضفاف النيل الجارى بين احضانها ، تحوطه بذراعيها وقد اطمأن اليها واطمأنت اليه ، وصب القمر الساطع فى كبد السماء الصافية سيلا من أشعته النيرة على «منف» عاصمة الفراعنة ونهرها المقدس المبارك ، والناظر الى تلك الكتل المتتابعة المتراصة من القصور والدور والشوارع والميادين ، التى لاينبعث منها صوت ولا تبدو فيها حركة ، لا يتصور ان فتنة هوجاء قد اكتسحت هذه المدينة وروعت سكانها من عهد قريب . لكن الاعين فى القصر الملكى ظلت ساهرة ، وركنا من اركانه ظل مضاء ، والحركة ظلت قائمة فى الردهات والممرات المؤدية الى ذلك الركن ، حيث خلت الملكة الى نفسها فى حجرة زينتها ، وانبطحت على الأرض أمام لوحات ملئت بالرسوم والخطوط ، وراحت تفحصها وتمعن النظر فى دقائقها ، فحص العارف الخبير وامعان العازم على أمر خطير !

ودخل شخص على الملكة بلا استئذان ، ففطنت اليه من وقع قدميه ، وعرفت من هو لانها لم تكن تسمح لغيره بأن يزعجها فى خلوتها ، فخاطبته بدون أن ترفع أنظارها عن اللوحات المبسوطة أمامها ، وفى لهجة مزجت فيها الرقة بالحزم :

ــ لا أرى داعيا لاى تعديل فى خطتنا يا تاناجى .. فلم يبق علينا اذن الا أن نعمد الى التنفيذ ، ونحدد سيره مرحلة بعد مرحلة ... اجلس ، ولنتفاهم ...

***

اسمها « تيتاكرتى » ومعناه بلغة قدماء المصريين « الحسناء ذات الخدين الورديين » وقد حرف المؤرخون اليونانيون هذا الأسم فجعلوه « نيتوكريس » وهو الذى انتقل الينا من خلال الاجيال المتعاقبة ، وقد حكمت الاسرة السادسة مصر مائة وخمسين سنة ، من سنة ٢٦٢٥ الى ٢٤٧٥ قبل الميلاد ، ونقشت على صفحات المعابد والمدافن أسماءملوكها «بيبى الاول» ، و «بيبى الثانى» ، و «مونرع» . ولكن الأقدار شاءت أن يختم عهد هذه الأسرة باسم امراة هى « نيتوكريس » ، أول ملكة عرفها التاريخ ..

وقد شاطرت «نيتوكريس» زوجها الشاب عرش مصر عندما خلف عليه الملك «بيبى الثانى» ، ولكنه لم ينعم بالملك أكثر من بضعة أشهر ، أو بضعة أسابيع ، تآمر عليه بعدها أشراف الدولة وقتلوه اغتيالا ، على أمل ان يتقاسموا ملكه فيما بينهم ، ويجعلوا من الدولة الواحدة

الكبيرة ، مجموعة من الدويلات الصغيرة . وكان فرعون القتيل اخا «لنيتوكريس» وزوجا لها ، ولذلك كان انتقامها له مزدوجا . .

ففى الليلة التى اقترفت فيها الجريمة ، جمعت حولها رهطا من الأعوان المخلصين ، الذين ظلوا على ولائهم للاسرة المالكة ، واتفقت معهم على التظاهر بقبول ما حدث ، والارتيـاح الى ما قام به المتآمرون من انقـلاب مخضب بالدم . وتحايلت على النـاقمين بحيث حملتهم على مفاوضتها فى أمر البقاء متربعة على العرش ، ريثما يتم الاتفـاق بينهـا وبينهم على ارضاء مطامعهم وتحقيق اغراضهم ، دونحاجة الياستعمال العنف وما يترتب عليـه من قلاقل واضطرابات ، قد تجـرف الاسرة وأصدقاءها وخصومها فى تيارها الاهوج . .

ودعت الملكة جميع الاشراف الى نزهة فى النيل ، بدون استثناء القتلة السفاحين الذين اغتالوا الجالس على العـرش ، وأعـدت لتلك النزهة العجيبة سربا من السفن ، زودتها بأفخر الرياش ، وأطيبأنواع الطعام والشراب ، ومضى ذلك الموكب يمخر عباب النهر ، بين أنغـام الموسيقى ، وغناء المنشدين ، وجعل المدعوون يتبارون فى الأكلوالشرب تارة ، وفى الصيد تارة أخـرى . وقد اعتقـدوا ان الملكة فرحة لمصرع زوجها ، وان بقاء امرأة على عرش الفراعنة سيجعله لعبة فى أيديهم، وأن شئون الدولة ستكون رهن رغباتهم وتصرفاتهم . وهل سمع أحد من قبل ان المرأة تحسن سياسـة الملك وتصلح للقضـاء فى أمور الرعية ؟

وتبعت هذهالدعوة دعوات متلاحقةمتواصلة، وغالت «نيتوكريس» فى اكرام الأشراف والتحبب اليهم ، واغدقت عليهم النعم بلا حساب، واكثرت من استشارتهم والاستنارة بآرائهم ، فاطمأنوا اليها الواحـد بعد الآخر ، واقروها على عرش زوجها ، وراح كل منهم يعلل النفس سرا بامتلاك قلبها فى المستقبل ، واتخاذها زوجة له ، والجلوس معهـا على أريكة الملك جنبا الى جنب !

ولما ادركت «نيتوكريس» أن شكوك الاشراف قد تبددت ، وان الشـعب لا يضمر لشخصها حقدا ، بل لا يبخل عليها بمظاهر العطف والولاء ، قررت أن تضرب ضربتها . .

***

وكان القائد «ثاناجى» اقرب المقربين اليها، وأوفى الأوفياء لذكرى زوجها القتيل ، وأشجع الشجعان بين رؤساء جيشها ، وأوفرهم ذكاء وفطنة ، فضلا عما يكنه فؤاده من حب مقيم للملكة الفاتنة ، وأمل فى أن تقابله ، مناحيتها ، بحب يرفعه اليمصاف الملوك . وقد وقع اختيارها عليه ليكون على راس المؤامرة التى حاكت خيوطها فى عزلة مخـدعها ، خلال ساعات الليل والنهار، منذ انأطاحت المؤامرة الأولى براس زوجها واخيها . . .

وقد تفننت الملكة الداهية فى اعداد وسائل انتقامها ، وارادت ان تأخذ بثأر الملك والأسرة بصورة لم تخطر من قبل ولن تخطر من بعد فى بال أحد . ثم وضعت الخطة بنفسها ، ورسمت خطوط التنفيذ بيدها ، واطلعت على سرها شخصا واحدا ، هو ذلك القائد المقدام العاشق ، ثاناجي ، الذى عهدت اليه الملكة فى الاشراف على تحقيق ما عزمت عليه .

قالت الملكة ، وهى تصوب من مقلتيها الى عينى القائد الولهان سهاما نفذت الى فؤاده فضعضعته :

ـ ثاناجى : لسنا فى حاجة يا صديقى الى اعادة ما قلناه وكررناه اكثر من مرة ، منذ أن كشفت لك عن قلبى ، وافضيت اليك بسرى . وفى هذه الساعة التى اتخذ فيها أخطر قرار فى حياتى ، اقول لك اننى ساكون زوجة لك ، وستكون رفيق حياتي وتصبح شريكى فى الملك ، عندما يتم لى الثأر الذى اسعى اليه . والآن ، عليك باعداد العدة للبدء بالعمل ، وانشاء القاعة التىسنقيم فيها المأدبة، وانجاز السراديب الموصلة بينها وبين مجرى النيل ، وأذكر ان مصيرنا الى الهلاك ، لو فطن احد الى سرنا ، أو فشلنا فى اعداد مؤامرتنا او تنفيذها ..

واقتربت « نيتوكريس » من الرجل المأخوذ بسحر عينيها، زاحفة على بطنها ، متلوية كالحية ، واحاطت بذراعيها عنق القائد ، وقدمت له فمها ، فتشابكت شفاههما فى قبلة حارة ، افرغت فيها المرأة كل ما فى انوثتها من اغراء ، وافرغ فيها الرجل كل ما يختلج فى صدره من حب وعرفان جميل ..

***

كان القصر الملكى وملحقاته اشبه بمدينة قائمة بذاتها ، تكتنفه الحدائق والبساتين ، وتتخلل الاشجار صفوف لا نهاية لها من النصب والتماثيل ، وتمتد متنزهاته على ضفاف النيل . وهناك ، على مقربة من النهر الجارى ، وفى ضاحية منعزلة من تلك المدينة الملكية ، حفر المهندسون والعمال والأسرى ، بارشاد «ثاناجى» واشرافه ، وشيدوا تحت الأرض قاعة فسيحة ، لها منفذ واحد ، ودعموها بالأعمدة ، وزينوها بأبدع الصور والرسوم ، وفرشوها بأفخر الرياش ، ونصبوا فيها الموائد المرمرية والمقاعد الموهة بالذهب والفضة ، وأوصلوها بمجرى النيل ، بسراديب ضيقة مغلقة من الناحيتين بصحائف من الصخر . ولما انتهى العمل وأصبح كل شىء معدا لتنفيذ ما اضمرته الملكة الداهية ، دعت جميع الاشراف الذين اشتركوا فى اغتيال زوجها، ولفيفا من أعوانها المخلصين ، الى مأدبة فاخرة فى تلك القاعة ، حيث قدمت لهم الذ ما يمكن ان تشتهيه النفس من مآكل ومشرب ، وقامت بنفسها على خدمة ضيوفها ، فكانت تطوف مع الخدم والجوارى على

الموائد واحدة بعد أخـرى ، وتبـالغ فى الترحيب بالاشراف ، وتوزع ابتساماتها ذات اليمين وذات اليسار ..

وباشارة منها ، شرع « ثاناجى » فى اخراج الأصدقاء الموالين من القاعة ، فأوفد كلا منهم فى مهمة وهمية ، وتسللت الملكة نفسـها من منفذ القاعة الوحيد الى حـدائق القصر ، وتبعها « ثاناجى » وأوصد الباب ، ولم يبق فى داخل المكان غير الذين كانت الملكة ترغب فى الاقتصاص منهم ، بعد أن دونت أسماءهم واحدا واحدا ، ووثقت من أن كلا منهم كان له ضلع فى المؤامرة السابقة ...

وفجأة ، رفعت الأبواب الصخرية عن فوهات السراديب ، وتدفقت منها مياه النيل الى داخل القاعة ، فى هدير ارتعدت له فرائص المدعوين ، فصحوا من سكرتهم ، ولكن بعد فوات الوقت ! فقد وثبوا من مقاعدهم مذعورين ، وتزاحمـوا على باب القاعة يطلبـون النجاة ، وحاولوا أن يسدوا بأجسامهم فوهات السراديب . ولكن مياه النيل المتواطئة مع ملكة النيل ، جرفتهم فى اندفاعها الهائل ، وملأت القاعة شيئا فشيئا ، فلم تلبث أن أصبحت كالبئر المسدودة ..

ومات الاشراف جميعا ، اما خوفا ، واما اختناقا ، واما غرقا ..

***

وذاقت « نيتوكريس » لذة الانتقام من أعدائها ، والثأر لأخيها وزوجها . وبكت الحسناء ذات الخدين الورديين . ولكن دموعها فى هذه المرة كان مبعثها التشفى والفرح !

غير أن الأرق داهمها منـذ ذلك اليوم الرهيب ، وهجر النـوم اجفانها، وتولاها قلق لم تدرك حقيقة مصدره !.. انها لا تحب «ثاناجى»، ولكنها وعدته بالزواج ، ووعدته بالملك ! وهى تسمع صوتا خفيا يهيب بها من أعماق نفسها ، ان هذا الزواج ستعقبه مؤامرة من الطامعين — وما أكثرهم — للتخلص منها ومن شريكها . وقد ظلت المرأة تتخبط فى غمرة ذلك القلق أسابيع وشهورا ، وخانها فى النهاية جلدها ، وانهارت أعصابها ، فعولت على وضع حد لذلك العذاب ، بالتخلص من الحياة

وفى صبيحة يوم من أيام الصيف البهية ، وضعت «نيتوكريس» قرارها موضع التنفيذ ، والقت بنفسها فى بئر مملوءة بالرماد ، فماتت خنقا !

وأعد لها الشعب مأتما اشتركت فيه الرعية من أقصى المملكة الى اقصاها ، وحنط الأطباء جثمانها ، ووضعوا المومياء فى تابوت من الحجر الازرق ، ودفنت داخـل الهرم الثالث ، هـرم « منقرع » الذى أنجز فى عهدها . وكانت وفاتها خاتمة الأسرة السادسة أيضا ..

***

كان ابعد الناس بأسا ، وأشـدهم حزنا ، بعد موت «نيتوكريس»

ذلك الرجل الذى ساعدها على الثار ، واوشك أن يستحوذ فى آن واحد على الملك والصولجان : القائد ثاناجى العاشق المغرم !

فقد أصيب المسكين بذهول افقده صوابه ، فجعل يطوف ليلا ونهارا حول الهرم الثالث حيث ترقد شريكته وحبيبته ، وعبثا حاول أصدقاؤه أن يعيدوا اليه الثقة والطمانينة . فقد كان يزجرهم قائلا : « انني أراها كل مساء وكل صباح هنا .. انها تخرج من أجلى وتغادر قبرها .. انها تحتضنني ، وتخاطبني ، وتقبلني ! »

وفى ذات يوم ، وجد « ثاناجى » ميتا عند سفح الهرم ، وقد اكب على وجهه ، وبسط ذراعيه كمن يعانق طيفا !

ومنذ ذلك الوقت ، وعلى كر الأيام ، والأعوام ، والدهور ، راجت تلك الاسطورة المؤثرة التى نقلها الينا المؤرخون اليونانيون عن الملكة نيتوكريس وطيفها الذى يخرج من هرم منقرع فى الليالى المقمرة ، ويحوم حول المقابر والمعابد ، وينادى العشاق بأسمائهم ، فيجلبهم اليه بقوة سحرية ، فيندفعون نحوه فاقدى الارادة ملتهبى الشعور ، ويلحقون به فوق الرمال ، ويغيبون فى بطن الصحراء ، ولا يعودون منها أبدا !

سفينة فرعون

فرعون مصر سنوسرت الثالث . حفر فى القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، قناة تصل البحرين ، مثل قناة السويس التى حفرت فى القرن التاسع عشر بعد الميلاد .



الربة عشتروت
« تمثال فينيقى »

السـفينة الزاهيـة تتهادى على صفحـة الماء ، تداعب الأمواج الخفيفة جوانبها ، وتدفعها الرياح الشمالية برفق الى الامام. فالطقس ربيعى جميل ، والسماء صافية الاديم فى النهار ، متلألئة بالنجـوم فى الليل . وعلى ظهر السفينة ، انغام والحان واناشيد ، تتصاعد بلا انقطاع من أفواه الرجال والنساء على السواء ، يتخللها أحيانا الرقص القومى أو الدينى ، والدعاء الى الآلهة بأن ترعى المسـافرين بعين عنايتهـا ، وتوصلهم سالمين الى بر الأمان !

انهم بضع عشرات من المصريين والفينيقيين ، فى طريقهم الى وادى النيل المبارك ، لتقديم هدية الى فرعون .

انهم لا يحملون الهدية ، بل الهدية هى التى تحملهم ! فالسفينة التى تتهادى بهم تجاه الشاطىء ، صنعتها أيدى الفنانين المهرة من بناة السفن فى مدينـة بيبلوس الفينيقيـة (١) لاهدائهـا الى فرعون مصر سنوسرت الثالث ، اعترافا بأيادية البيضاء على مدينتهم .

فى العام السابق ، هز جبال فينيقية وسواحلها زلزال عنيف ، لحقت ببيبلوس من جرائه أضرار كبيرة . ولما بلغ الخبر مسامع فرعون، حزن لما حل بالمدينة العريقة ، التى كانت تربطها ببلاده روابط الصداقة والتعاون وتبادل السلع والمنتجات ، والتى كان فيها للربة ايزيس المصرية معبد وكهنة ، بجانب معابد عشتروت (٢) ربة فينيقية وحارسة سفنهـا فى رحلاتها البعيدة ومغامراتها الجريئة .

أراد سنوسرت الثالث أن يعبر لشعب بيبلوس عن شعوره نحوه فى تلك المحنة القاسية ، فأوفد الى المدينة المنكوبة بعثة من اخصائه ، على راسها « تانهرى » مهندس القصور الملكيـة ، والخبير فى تخطيط المدن وأعمال التعمير

وصل الوفد الى بيبلوس فى ثلاث سـفن محملة بالمؤن من كل صنف ، والأدوات من كل نوع ، وتمثال لايزيس ، ليحل فى حرم معبدها، محل التمثال الذى قيل لفرعون ان الزلزال أسقطه عن قاعدته فتحطم، وبعث ذلك الحادث التشاؤم فى النفوس .

قوبلت هدايا فرعون بالشكر والدعاء الطيب، وقرر شعب بيبلوس أن يرد عليها بهدية لائقة بالعاهل العظيم ، يأخذها وفد من بيبلوس الى مصر ، بعد مرور سنة على اليوم الذى ألقت فيه السفن المصرية مراسيها فى الميناء

---

(١) بيبلوس : اسمها اليوم «جبيل» ـ ميناء صغير على ساحل لبنان ، ومن أقدم المدن فى العالم

(٢) عشتروت : تقابل عند قدماء اليونانيين « اسـتارتى » أو « فينوس » ربة الجمال .

ولما انقضت السنة ، كانت الهدية مهيأة جاهزة !

انها سفينــة فينيقية من طراز خاص ، بنيت للقيــام برحلات فى محاذاة الساحل ، وفى الانهار والجداول والقنوات ٠

صنعت كلها من خشب الارز ــ أرز لبنان الصلب المعطر ــ هيكلها، وجوانبها ، وصواريها ، ومجاديفها ، ومقاعدها ، وأدوات الزينة والطهو فيها !

لم تخرج من مصانع السفن فى ممالك فينيقية سفينة مثلها من قبل ! ولم تحمل سفينة من قبل ما حملته « سفينة فرعون » كما سماها أهل بيبلوس ، من آنية فاخرة ، وعطور فواحة ، وعيدان ذكية ، وبخــور ولبان ، مرسلة الى معابد مصر وهياكلها ، ومن عصافير نادرة ، وصقور ونسور ، وفواكه مجففة ، وجلود وفراء ، وحلى وجواهر ، مرسلة الى فرعون ، عربون وفاء وولاء !

كان معظم رسل سنوسرت قد عادوا الى وطنهم الواحد بعد الآخر، وبقى بعضهم فى بيبلوس مع رئيسهم تانهرى ، الذى تزوج فتــاة من بناتها ، الحسناء « تنيشام » ابنة صاحب مراكب الصيد « رحيرام » فأضاف ذلك الزواج رابطة جديدة الى الروابط الكثيرة التى كانت قائمة بين الأسر الفينيقية والأسر المصرية ٠

عول تانهرى على العودة الى بلاده ، مع زوجته ومن بقى من رفاقه ، فى السفينة الفاخرة التى أعدها سكان المدينة هدية لفرعون ، واختاروا حماه رحيرام ربانا لها ٠

خرج الكهنة والكاهنات من معابد عشتروت فى مهرجان اشتركت فيه بيبلوس بأسرها ، وصعد كبيرهم الى ظهر السفينة ليباركها جريا على العادة المتبعة عند الفينيقيين قبل كل رحلة بحــرية . وأعلن انه ورفاقه قرروا أن تسافر عليها فتاة من عذارى الهيكل ، لتكون صورة مجسمة لبركة عشتروت فى مياه مصر ٠

ولم تكن العذراء التى وقع عليها الاختيار غير الفتاة « سيكار » اخت « تنيشام « زوجة « تانهرى » المصرى ، فتمت بذلك سعادة الاسرة التى ظل شملها ملتئما فى « سفينة فرعون »

وقبل قيام السفينة ، جاء دور العــرافة لتستطلع الغيب وتقرأ فى صفحته ما كتب للراحلين الى بعيد .

« سوف تصلون بسلام الى أرض مصر . وسوف تبقى السفينة مصــونة من الأذى ، فى مأمن من الرياح العاصــفة ، والمياه الهائجة ، والاقدار الغادرة ، ما دامت سيكار مقيمة فيها ، لا تغادرها الى البر ، عذراء تعف عن الزواج . تقف نفسها لربتنا عشتروت ، تتوجه اليهــا بالصلاة ، وتحرق لها البخور فى أرض مصر ! »

وأقلعت سفينة فرعون بمن فيها . هدية تحمل حامليها، وراء ن

تشق العباب ، والانغام والالحان والاناشيد تملأ أرجاءها فى الليل والنهار !

***

وصل الوافدون من بيبلوس الى شاطىء مصر بسلام . ودخلت سفينتهم مصب النيل من أحد فروعه ، وواصلت سيرها بين الضفتين، حيث كان الناس يرقبون مرورها هاتفين مرحبين ، ووجهتها عاصمة فرعون العظيمة .

كان سنوسرت الثالث فى أوج مجده !

فالأسرة الثانية عشرة ، التى ينتمى اليها ذلك العاهل المصلح ، حققت لمصر مشروعات انشائية خلدت أسماء ملوكها على كر الدهور .

ثمانية من الفراعنة ، كلهم رجال حرب وبناء ! .

فى عهدهم الذى دام مائتى سنة فقط ، من ٢٠٠٠ الى ١٨٠٠ قبل الميلاد ، انتظمت الادارة ، وضبطت جباية الضرائب ، وازدهرت الصناعة والزراعة ، واستخرجت المعادن من مناجم مصر ، والحجارة الكريمة من سيناء ، واتسعت التجارة فى الداخل والخارج ، وخضع الاقطاعيون للسلطة المركزية ، وانشئت المعابد ، ورفعت مسلة عين شمس ، وشيد هرم دهشور ، وشملت الملاحة نهر النيل وفروعه ، والبحرين الاحمر والمتوسط ، وغصت البلاد بالخيرات من كل نوع ، وبالسلع من كل بلد .

رأى فرعون ان النقل بطريق البر بين سواحل البحرين ، يستغرق وقتا طويلا ، وجهودا شاقة ، ونفقات باهظة ، فقرر أن يصل بين البحر والبحر ، بقناة تمتد من فرع النيل الشرقى الى الخليج الذى ينتهى به البحر الاحمر ، داخل الارض المصرية .

قرر ونفذ فى الحال !

كانت الترع فى مصر السفلى تؤلف شبكة تتداخل مجاريها بعضها فى بعض ، فتسهل على السفن الكبيرة والقوارب الصغيرة الانتقال من مكان الى مكان ، ومن مدينة الى مدينة ، على ضفاف النيل فى طول الدلتا وعرضها .

فأضاف سنوسرت الثالث ـ ويغلب على الظن انه فرعون الذى تحدث عنه مؤرخو اليونان باسم سيزوستريس ـ قناة عميقة واسعة ، وصلت النيل بخليج البحر ، فتم بها الاتصال بين سواحل البحرين ، وتحققت أمنية فرعون !

وساعد ذلك على زيادة الرخاء ، فهلل الشعب ودعا للمصلح الكبير بالعمر الطويل ودوام العز والمجد .

ولما وصلت هدية شعب بيبلوس ، أمر فرعون باعداد سلسلة من الرحلات للنزهة ، على طول مجرى النيل . وفى فروعه وقنواته ، وأراد

قبل كل شيء أن يجتاز ضيوفه الفينيقيــون ، بالســفينة التى سموها باسمه ، المسافة الفاصلة بين شاطىء البحر فى الشمال ، وشاطىء البحر فى الشرق ، بدون أن يضطروا الى النزول من سفينتهم ، التى ســلكت للمرة الاولى الطريق المائى المحفور وسط الرمال ، والذى سماه فرعون « قناة البحرين » .

عاد رحيرام الى بلاده ، وقص على مواطنيه ما شاهده فى مصر من منشئات عمرانية مدهشة .

واستأنف تانهرى عمله فى القصور الملكية ، ومعه زوجته الفينيقية تنيشام ، التى ذاقت فى وطنها الثانى سعادة كانت لها عزاء على هجرها وطنها الاول .

وبقيت سيكار ، الكاهنة العذراء ، على ظهر سفينة فرعون ، عملا بارادة الآلهة التى نطقت بها العــرافة فى بيبلوس ، والتى خضع لها سنوسرت لما أطلعه تانهرى ورفاقه عليها .

أمر الملك بأن تحاط الفتاة الغريبة بالاكرام وأن تظل مصونة من الأذى . وأوصى بها الربان الذى اختاره من المقربين اليه ، ليحل محل رحيرام الفينيقي ، والد العذراء سيكار ، وقال له : « كن لها أبا ، وأخا، وحارسا أمينا ! »

***

توالت الايام ، وتتابعت الرحــلات ، ومرت الشهور والاعوام ، وفرعون ساهر على سلامة مملكته ، عامل لاسعاد شعبها ، يختلس من وقته الثمين أياما معدودة ليأخذ نصيبه من الراحة .

كان يستخدم دائما فى تنقلاته داخل البلاد ، وبين شواطئها ، وفى أطرافها ، تلك السفينة التى جاءته هدية من قوم عرفوا له فضله وأقروا بجميله .

ولم يفطن الى أن مأساة عاطفية تدور فصولها على ظهر السفينة، وتسبب شقاء شخصين فى ريعان الشباب !

فقد توثقت الألفة بين الربان المصرى الذى عهد اليه فرعون بقيادة سفينته ، والفتاة الفينيقية التى قضت ارادة الآلهة بأن تبقى عذراء ، ولا تلمس الارض بقدميها !

نشأت المحبة بعد الألفة ، وتحولت المحبة الى حب . وانقلب الحب غراما جارفا ، ولكن الفتاة أبت أن تخون العهد الذى قطعته على نفسها ، يوم رضيت بأن تصعد الى ظهر السفينة ولا تغادرها ، والا يكون لها طول حياتها علاقة برجل !

واحترم الشــــاب تمسك الفتاة بعهدها . فقاسى من حبه المكظوم عذابا أدمى فؤاده ، وانتابه أرق دائم هد كيانه وأفقد جسمه القــوة اللازمة لمواصلة القيام بعمله ، وأداء مهمته .

وزاد فى عذابه ماكان يراه من مظاهر الضعف واليأس عند الحبيبة العزيزة . فقد ذبلت نضارة وجهها ، وغارت عيناها ، وتمتمت ذات يوم على مسمع من الحبيب الغالى ، أنها أصبحت تؤثر الموت على الحياة ، اذ لم يعد فى وسعها ان تقاوم العاطفة الجياشة فى صدرها ، ولا تستطيع من ناحية أخرى أن تخون العهد وتخالف ارادة عشتروت !

عرف الشاب والفتاة كيف يكون شقاء المحبين ، اذا لم يكلل الحب بالوصال !

***

وفى يوم من أيام الربيع ، تلقى الشاب من فرعون أمرا بأن يعد السفينة لرحلة جديدة ، خلال القناة الكبيرة ، الى ساحل الخليج .

فأعد الربان العدة لتلبية أمر فرعون ! ولكن خبرا محزنا كان ينتظر سنوسرت ، عند مرفأ السفن فى نهر النيل .

فى ذلك اليوم ، وجدت سيكار ، الفينيقية العذراء ، ميتة فى فراشها ، وعلى فمها ابتسامة جميلة كأنها تستقبل الموت بالرضا والارتياح !

وفى ذلك اليوم ، عرف فرعون قصة الغرام التى جمعت بين قلبين !

فقد روى له الشاب العاشق ماحدث بينه وبين كاهنة عشتروت فأدرك فرعون أن الفتاة ماتت من الحزن والأسى .

فنفرت دمعة من عينه !

ثم خاطب رجال حاشيته ، وبحارة السفينة ، قائلا :

ـ علينا أن نحترم ارادة الآلهة كما احترمتها هذه العذراء المسكينة ... ليس فى وسعنا أن ننقلها الى البر لدفنها فى أرض مصر التى أحبتها ... فالسفينة فى هذه الحالة قد تتعرض للهلاك ، تحقيقا لتكهن العرافة ، التى قالت ان السفينة ستبقى مصونة من الأذى ، مادامت سيكار مقيمة فيها !

تطلع السامعون بعضهم الى بعض ، متسائلين ماذا يريد فرعون أن يصنع ؟

واستطرد سنوسرت قائلا :

ـ لن تمخر بنا هذه السفينة بعد اليوم عباب النهر أوالبحر ... امضوا بها فى القناة الكبيرة الى عرض الخليج ، وهناك ، افتحوا ثغرة فى جنبها ، واهجروها ، ودعوها تغرق وبها العذراء الفينيقية فى كفنها ! فهى خير ضريح لها !

***

أغرقت « سفينة فرعون » فى مياه الخليج ، وبقيت فيها جثتان !

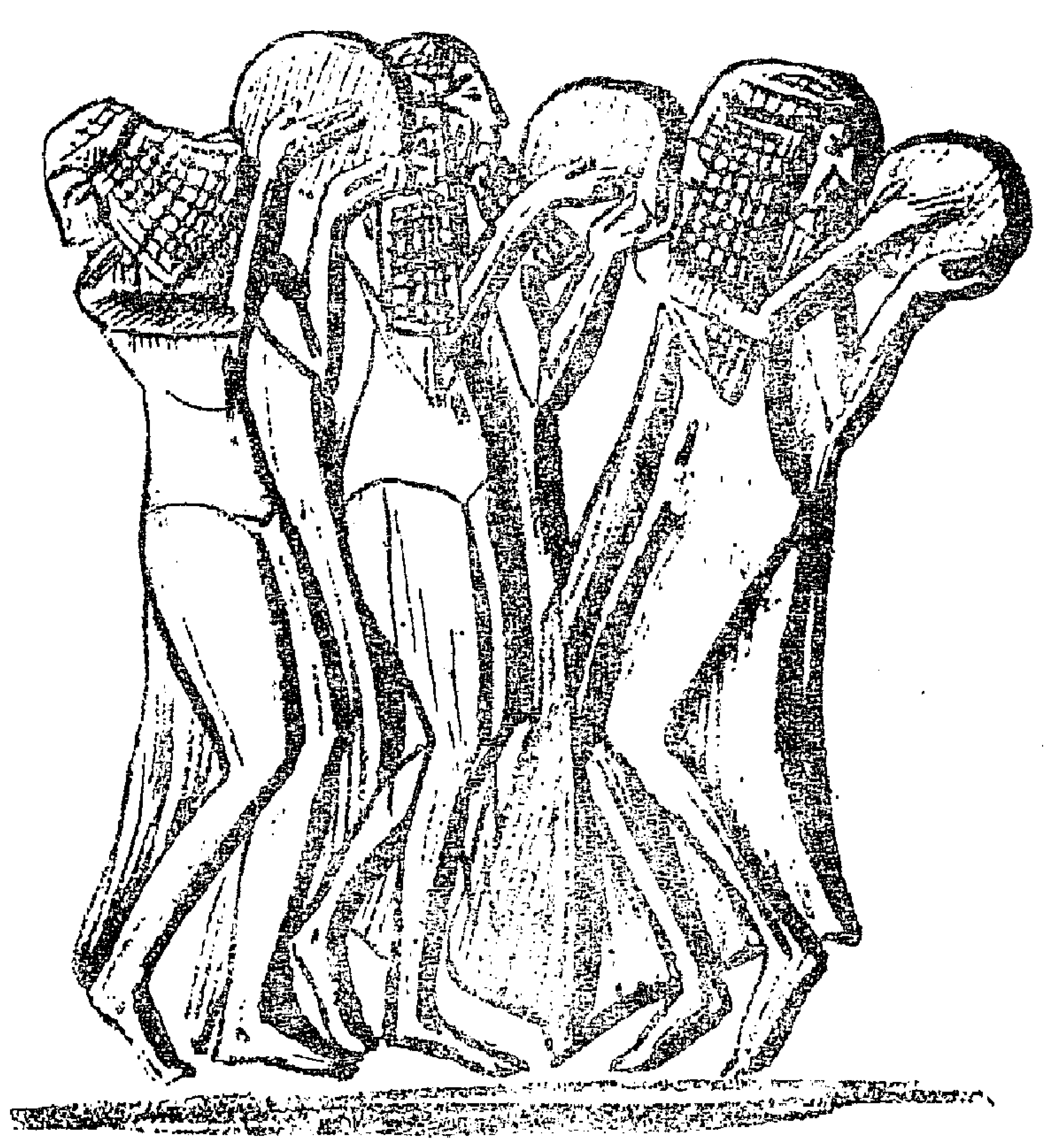
فقد حمل رجالها الخبر الى سنوسرت الثالث فى قصره فتضاعف حزنه ، ونفرت فى هذه المرة من عينيه دمعتان !

لما فتح البحار ثغرة فى جنب السفينة ، وتنادوا للنزول منهـا ، وتركها تغرق تنفيذا لأمر فرعون ، رفض الربان العاشق أن يلحق بهم ، وأبى الا أن يظـل ملازما لجثمان حبيبته ، فيرحـل معها الى العالم الآخر !

وغارت سفينة فرعون فى اليم ، تضم فى أحضانها العاشقة الميتة ، والعاشق الحى !

رسول فرعون

فى عهـد تحوتمس الأول ، بدأ المصريون يعنون بتربية الخيول العربية الأصيلة ، وانشـاء كتـائب الفرسـان فى الجيش . . . !



وجاءوا لفرعون بأبرع الراقصات

أحاط رجال الدولة بفرعون الكئيب الحزين ، وحاولوا عبثا تهدئة خاطره وادخال السرور على نفسه ، وجاءوا بأبرع الراقصات واجمل النساء وامهر العازفين على آلات الطرب ، واشهر المغنين فى « طيبة » واقاموا فى العاصمة المصرية الافراح والليالى الملاح . ولكن ذلك لم يخفف من حزن فرعون وكآبته ، ولم يجد منفذا الىصدره المنقبض .

ــ كرتميس ! .. كرتميس !

تلك هى الكلمة التى كانت ترددها شفتاه فى صحوه ومنامه ، فى روحاته وغدواته ، فى داخل قصره بطيبة أو فى الحدائق الغناء على ضفاف النيل المبارك .

ــ كرتميس ! .. كرتميس !

أحرزت الجيوش المصرية انتصارات باهرة فى الميادين ، ولكن تلك الانتصارات لم تكن كافية لمحو ذلك الاسم من ذهن فرعون .

وامتدت حدود مصر الى مسافات شاسعة شرقا وغربا وجنوبا. وخضعت لها الممالك الآسيوية والافريقية . ولكن تلك الفتوح لم تكن كافية لتعزية فرعون عن فقد من يحب .

ــ كرتميس ! .. كرتميس !

طبع ذلك الاسم ــ بل نقش نقشا ــ فى قلب العاهل الفاتح ، ولكن فرعون العظيم القدير ، الذى استطاع أن يحتفظ بملكه المترامى الاطراف ، ويبسط سلطانه على أرباب التيجان فى العالم المعروف فى ذلك الوقت ، عجز عن الاحتفاظ بامرأة أحبها وأخضع قلبه لمشيئتها .

فقد هربت المحبوبة المعبودة من القصر فى ليلة مظلمة ، وآثرت العودة الى أهلها فى البلاد التى « مابين النهرين » (١) حيث تشرق الشمس وتهب الرياح العاصفة ــ على البقاء فى ديار الغربة وفى قصر فرعون !

وطار قلب تحوتمس الاول شعاعا ، وجن جنونه ، وتولاه القلق واليأس ، وحل الاضطراب فى حياته محل الراحة والهناء .

وراح يبحث عن المحبوبة الهاربة ، ويردد فى كل آن ومكان اسمها العذب :

ــ كرتميس ! .. كرتميس !

***

أعاد « أحمس » الى مصر استقلالها والى الاسرة المصرية المالكة

---

(١) هى اليوم العراق .

تاجها ، بعد أن تم له النصر وطرد « الهكسوس » الرعاة من وادى النيل، ومات ذلك الملك المنصور تاركا لخلفائه دولة قوية منيعة الجانب .

وجلس على عرش مصر بعده امنوفيس الاول ، فسار فى الطريق الذى خطه سلفه ، وعزز الملك بفتوح جديدة ومشروعات عمرانية جليلة ، ومات فى سنة ١٥٤٠ قبل الميلاد فبكته الرعية ، واقسم خلفه تحوتمس الاول » أن يتم مابدأ به ذلك الملك العادل الصالح .

وتولى تحوتمس الملك من سنة ١٥٤٠ الى سنة ١٥١٥ قبل الميلاد فبلغت مصر فى عهده أوج العلا ، وحرقت البخور فى الهياكل تكريما له ، ورفعته الى مصاف الآلهة فعبدت « ابن توت » وأجلسته على عرش القلوب بعد أن أجلسته على عرش الملك .

وحدث فى اثناء غزوة قام بها الجيش المصرى الظافر فى أقاصي الشرق ، على ضفاف الفرات ، ان ساق الغزاة الفاتحون أمامهم طائفة من الأسرى والعبيد والسبايا ، حاملين أبدع ماحوته تلك البلاد من نفائس .

وجاء قواد الجيش الى فرعون بفتاة تحاكى البدر بهاء ونورا ، وعود الخيزران تثنيا وامتشاقا ، والظبى دلالا ونفورا . وهى ابنة أمير من أمراء البادية ، نازل المصريين فى الميادين ، وحاربهم محاربة الابطال وابنته الى جانبه ، تشد أزره وتضرم فى صدره نار الحماسة ، وتحرضه على القتال ، الى أن سقط الأب صريعا فى حومة الوغى ، ووقعت الابنة أسيرة فى ايدى الغالبين المنتصرين !

وقال قائدهم :

ــ ستكون هذه الغانية هديتنا الى فرعون !

وتقبل تحوتمس الهدية ، وحلت الفتاة فى قصر الملك ، واقامت بين النساء معززة مكرمة ، وما لبث فرعون أن جعلها رئيسة عليهن جميعا ، تأمر فتخضع لأوامرها الراقصات والخادمات والاماء وحاملات العطور والرياحين .

ولكن « كرتميس » لم تكن سعيدة ولم تكن راضية بتلك الحياة الجديدة . وعندما أرسل تحوتمس فى طلبها ، وكاشفها بحبه ، وافضى اليها بما أثارته فى نفسه من غرام ، لم يعد قادرا على كبح جماحه ، القت الفتاة بنفسها على قدميه ، وقالت والدموع تنهمر من عينيها النجلاوين :

ــ اذا كنت أيها المولى القدير تحبنى حقيقة ، وتكن لى فى صدرك ماتبوح به الآن من شعور قوى ، فأثبت لى ذلك بالبرهان الساطع والدليل المحسوس ، وأعد الى حريتى ، وأطلق سراحي ، ودعنى اذهب الى حيث نشأت وترعرعت فى جوف الصحراء المحرقة ، وسط الرمال التى لا نهاية لها ، حيث لقى آبائى وأجدادى حتفهم فى الحروب ، وحيث أريد أن أقضى حياتى وأموت !

لكن فرعون لم يجبها الى طلبها ، وجعل يمنيها بطيب الآمال وحلو

الامانى ، قائلا : انها ستعيش فى القصر محوطة بالاجلال والمحبة والاكرام ، لا فرق بينها وبين الملكة المتوجة ، وان بقاءها فى طيبة يضمن لها ولفرعون السعادة والهناء فى مستقبل الايام !

وحاولت كرتميس فيما بعد غير مرة أن تحمل فرعون على اخلاء سبيلها واعادتها الى بلادها وعشيرتها ، ولكنها كانت فى كل مرة تلاقى منه اعراضا ورفضا ، فعولت على الهرب من القصر .

وحققت بغيتها بمساعدة من تمكنت من اغرائه بالمال من الحراس، وتفقدها تحوتمس ذات يوم فلم يجدها ...

وانقلب فرعون منذ ذلك الوقت من حال الى حال . وساورته الهواجس والهموم ، وراح يردد اسم الحسناء الشاردة :

ـ كرتميس ! كرتميس ! كرتميس ! ثم احضر القائد لديه وقال :

ـ أريد أن تجتاح البلاد ، وتخضع سكانها ، وتفرض عليهم الجزية، وتسوق الاشداء منهم الى الاسر ، وتنزل العقاب الصارم بكل من يخيل اليك أن له علما بمقر كرتميس ، ويتذرع بالنكران . أسامع أنت ؟

فركع القائد أمام فرعون وأجاب :

ـ سامع يا مولاى !

ـ اذهب ! وليزحف الجيش منذ الليلة الى الشرق !

وفى المساء ، غادرت الجحافل المصرية ضواحى طيبة حيث ظلت تحتشد بضعة أسابيع .

سار جيش الى الشمال فالشرق لغزو بلاد الاشوريين والبابليين والفرس .

وسار جيش الى الجنوب لغزو بلاد كوش ـ المسماة الآن « اثيوبيا » أو « الحبشة » .

وأمر فرعون بأن تنصب على شرفة قصره العليا خيمة ارجوانية ، ويوضع فيها سرير الملك ، لكى يشرف على الطرق المتشعبة من طيبة الى أطراف المملكة ، وأقسم أن يظل مقيما فى تلك الخيمة الى أن يحمل اليه الرسل خبرا سارا عن كرتميس !

وأوفد مع الجيش الزاحف شمالا وشرقا مائة رسول من عبيد القصر المشهورين بسرعة الجرى وقطع المسافات البعيدة بلا عناء . وعهد الى قيادة الجيش فى أن تعيد الى طيبة رسولا واحدا كل يومين أو ثلاثة ، حاملا الى القصر آخر الأخبار .

ودار القمر دورته مرة بعد مرة ، ولم يحمل الرسل الى فرعون غير انباء الانتصارات المتوالية التى أحرزها جيشه فى ميادين القتال .

ولم يكن هذا ما يتوق اليه تحوتمس ، بل كان يرغب قبل كل شيء في معرفة ما تم من أمر كرتميس ، وهل تمكن قواد جيشه من العثور عليها وهل هي عائدة الى القصر أو لا ؟

وفد الرسل الواحد بعد الآخر ، وكان فرعون كلما جيء اليه برسول قادم من الشرق يبادره سائلا :

ــ ما وراءك من أخبار ؟

فيجيب الرسول :

ــ انتصر جيشك يافرعون !

ولكن تحوتمس كان يقاطعه قائلا :

ــ أليس وراءك غير أخبار الحرب والقتال ؟

ــ نعم يا مولاى !

ــ اذهب اذن !

وبعد أن وفد على طيبة ثلاثون رسولا لا يحملون غير أنباء الانتصارات ، صاح فرعون فى غيظ وحنق :

ــ ليس هذا ما أود معرفته ! ليس هذا ما أتوق اليه ! كرتميس ! كرتميس ! أريد أن أعلم ماذا حل بكرتميس . ولن ينزل الرسول بعد اليوم حيا من هذا المكان ان كان لا يحمل الى أخباراً عن كرتميس !

فارتجف رجال القصر من الخوف . وأسرع الكهنة الى الآلهة يتوسلون ويضرعون اليها بأن تحقق رغبة فرعون وتنقذ حياة الرسل المساكين !

وبعد عشرة أيام وفد رسول جديد ، ومثل بين يدى تحوتمس الاول ، فوجده وحيدا فى خيمته . وقد وضع أمام وسادته سيفا مسلولا ...

وصاح فرعون :

ــ أمعك خبر عن كرتميس ؟

ــ كلا يا مولاى !

ــ خذ اذن !

ومزق السيف صدر المسكين واسكت دقات قلبه ، فخر على الارض جثة هامدة !

واستلقى فرعون على سريره وهو يرتجف من الغضب ...

وشاءت الاقدار أن يفد على القصر فى ذلك اليوم أربعة من الرسل، قتلهم فرعون الواحد بعد الآخر لانهم لم يحملوا اليه الخبر السار الذى كان ينتظره ...

وانقضت عشرون يوما لم يفد فيها على طيبة رسول آخر من الجيوش المحاربة ...

وقلق فرعون واضطرب ، وخشي أن تكون هناك كارثة قد حلت بجنوده ، فهجر الرقاد جفونه ، وواصل الليل بالنهار على الشرفة ، وعيناه شاخصتان الى الطريق ، رافضا ما كان يحمله اليه العبيد من طعام وتأتيه به الاماء من شراب وعطور ...

وفجأة ، فى منتصف الليل ، استيقظ تحوتمس على ضوضاء منبعثة من سلم الشرفة وسمع صوتا قويا يصيح قائلا :

ـ لن يقف حارس فى وجهى ، فلا بد من الوصول الى فرعون لأننى أحمل أخبارا يجب أن تبلغه فى الحال !

وصاح تحوتمس من ناحيته :

ـ على بالرجل !

واندفع الى الشرفة شاب فى العقد الثالث من العمر ، قوى البنية مفتول الساعدين اسود البشرة ، وانطرح على الارض أمام فرعون قائلا:

ـ انى أعلم يامولاى ماينتظره الرسول الذى لايحمل اليك خبرا عن الفتاة كرتميس ! وانى أحمل اليك ذلك الخبر . غير انه خبر ليس فيه ما يسر !

ـ أفصح ... أفصح ...

ـ ان كرتميس يا فرعون قد انتقلت الى عالم غير هذا العالم .

ـ ماتت ؟

ـ ماتت منتحرة بعد أن انتزعناها من ديار أهلها ومن بين عشيرتها ...

ـ كيف حدث ذلك ؟

ـ خرج الينا القوم من بطن الصحراء وكانت كرتميس نفسها تقودهم وتحثهم على القتال . ولكننا صمدنا لهم ، ودفعنا هجومهم ، ثم تغلبنا عليهم شيئا فشيئا حتى هزمناهم هزيمة منكرة ، وفتكنا بهم فتكا ذريعا . وما انتهى ذلك اليوم المشهود حتى كانت أشلاؤهم تملأ السهل ، ومواشيهم شاردة فيه . وقد وقع فى الأسر كثيرون منهم بينهم كرتميس ، التى جرحت فى المعركة .

وبعد ؟

ـ أقمنا حولها الحراس وضمدنا جرحها وأحطناها بكل عناية . ولكنها يامولاى اغتنمت فرصة الظلام الحالك وخنقت نفسها بشعرها الطويل المسترسل على كتفيها !

ـ ويحكم ! أما فكرتم فى حراستها ليلا كما فكرتم فى حراستها نهارا ؟ .

ـ لم يعتقد أحد منا يا مولاى انها ستقدم على ذلك العمل الجنونى !

ـ انك تستحق الموت كسواك من الرسل الذين سبقوك . ولكنى سأبقى عليكَ وأحتفظ بك الى ما بعد عودة الجيش ...

ـ لدى خبر آخر يا فرعون !

ـ تكلم ...

ـ ان الجيش العائد من الصحراء الشرقية ، يسوق أمامه أسرابا من « الخيول » العربية ...

ـ آه .. الخيول .. التى يستخدمها أعداؤنا فى السفر والحرب، فيمتطونها ويروضونها ويدربونها على الجرى والقتال . لقد احسنتم صنعا . وهذا الخبر يحملنى على العفو عنك . اذهب فأنت حر طليق !

خرج الرسول ، ونظر فرعون حواليه . وعندما أيقن أنه وحيد على شرفة القصر ، وأن لا أحد يراه ، أمسك رأسه بيديه ، وتفجرت الدموع من عينيه ، وبكى بكاء مرا ، على حين كانت شفتاه تردد ان الاسم المحبوب :

ـ كرتميس ! .. كرتميس !

***

رجع الجيش الفاتح من أرض بابل وآشور وفارس ، يسوق أمامه آلافا من الأسرى والسبايا ، وقطعانا من الخيول المطهمة والافراس الاصيلة ، وأثقالا لا يحصى لها عدد ووزن من أسلاب المعارك وتحف القصور .

وأصغى تحوتمس بامعان الى ما قصه قواد جيشه من أمر كرتميس ، وكيف آثرت الانتحار على العودة الى الاسر ، وقال بعد أن اطلع على نتيجة تلك الحملة الموفقة التى قام بها جيشه الباسل على الدول المجاورة :

ـ لقد أحرزتم فى المعارك نصرا انسانى ماعداه من أمور . واحرز الجيش فى الجنوب نصرا آخر يبسط سلطان فرعون على بلاد كوش . وفرعون فخور بجنده وقواده . وقد عجزتم عن اعادة امرأة هاربة الى القصر الذى هربت منه ، ولكنكم أتيتم بعامل جديد من عوامل النصر فى الايام المقبلة . أتيتم بالحيوان الذى يعد خير صديق للرجل بين ذوات القوائم الاربع . فان الهكسوس قد جاءوا ببعض الخيول من الشرق ، ولكنهم لم يعتنوا بتربيتها فى وادى النيل ، أما الآن ، فاننا سننشىء لها المرابط ونهيىء لها المراعى الخصبة ، ونخصص لها من أبناء مصر من

يتولى تربيتها وتحسين نسلها. وسوف يستخدم ملوك مصر فى المستقبل تلك الخيـول والافراس لعظمة مصر وبسط سلطان فرعون على الشعوب الاخرى .

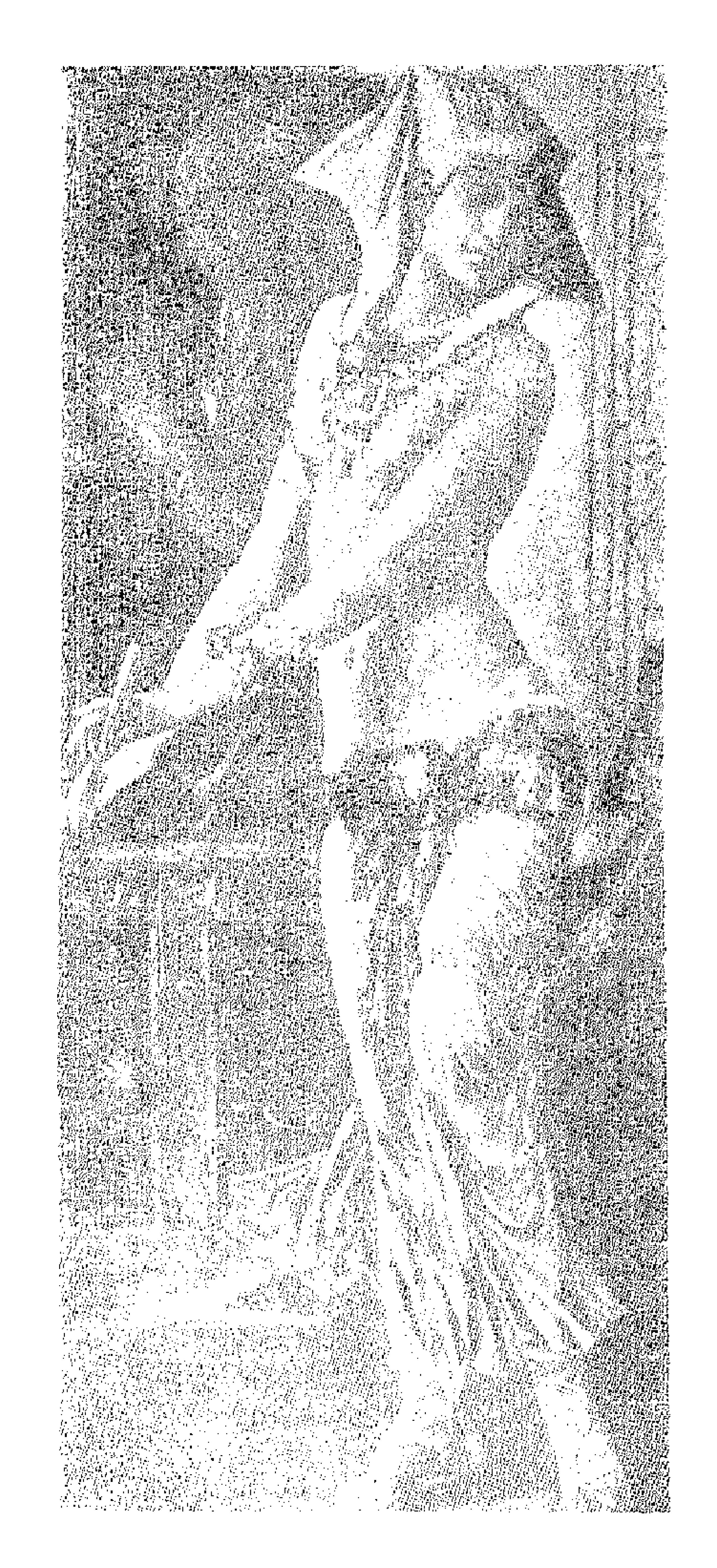
وبعث تحوتمس فى طلب الرســول الذى حمـل اليه خبر موت كرتميس وجلب الخيول الى مصر ، فأنعم عليه وكافأه ، واختاره رسولا خاصا له ، وعرف الرجل منذ ذلك الوقت باسم « رسول فرعون » .

ونسى تحوتمس الفتاة كرتميس ، كأن ذكرها قد ذاب على حراوة الدموع التى تساقطت من عينيه فى تلك الليلة !

وانصرف المصريون منذ ذلك الوقت الى العناية بتربية الخيول ، وما مرت سنوات معدودة حتى كان عددها قد تضاعف فى وادى النيل، وأنشأ فرعون فى جيشـه فرقا من الفرسان الذين عاد اليهم الفضل فى فتح الاقطار واخضاع الامصار ...

الجميلة أنت

رقصت الصبية الرشيقة أمام فرعون فقرر أن يتزوجها ...



راقصة من بنات الاشراف فى قصر فرعون

بدا قصر فرعون فى ذلك اليوم البهيج فى حلة من الزينة تبهر الابصار ، وتأخذ بالألباب ، وخرج الشعب الى الشوارع والميادين ، واحاط بالقصر الملكى ينظر الى الحراس الكثيرين ، وقد تفرقوا على الإبواب . ويصغى من بعيد الى الالحان العذبة والانغام الشجية المتصاعدة من وراء الجدران العالية ، وينشر الازهار ويلوح بالرياحين كلما اخترق صفوفه كاهن من الكهنة ، أو عظيم من العظماء ، أو قائد من القواد ، فى طريقه الى المقر الملكى ، حيث أقام فرعون حفلة سمر وطرب ، دعا اليها رجال مملكته الامناء ، وأصحاب الرأى النافذ فيها .

وتربع امنحوتب الرابع فى سريره الذهبى المرصع بالحجارة الكريمة . واحاط به المدعوون احاطة السوار بالمعصم ، على حين أن المغنين يطربون الملك بأناشيدهم الجميلة ، طالبين من آدون أن يطيل ملكه ويزيده مجداً على مجد وجاها على جاه .

وجلست بجانب الملك امه النبيلة الذكية المسموعة الكلمة ، الملكة « تى » زوجة أمنحوتب الثالث العظيم ، القوى الشجاع ، الذى لم يطلق فى حياته من القوس سهما طائشا ، والذى روع الجيوش فى الميادين والسباع فى الغابات ، فدون اسمه فى التاريخ كأمهر صياد عرفه الناس ، وقتل فى الصحارى والادغال والهضاب مائة واثنى عشر أسدا فى عشر سنوات ، فضلا عن الذئاب والفهود والثعالب والصقور !

وكان ابنه امنحوتب الرابع يعلل النفس بالسير على منهاج ابيه فى تدويخ الممالك واخضاع الشعوب ، ولكن بطريقة غير التى عمد اليها أبوه ، وبسلاح غير الذى كان فرعون العظيم يشهره فى وجه اعدائه

كان امنحوتب الثالث يخضع أعداءه بنصال السيوف واسنة الرماح وسهام الاقواس . أما امنحوتب الرابع ، فقد فكر فى اخضاعها بدين جديد وعقائد مبتكرة تقوم على أنقاض الدين القديم والعقائد البالية .

وهو الذى قوض سلطة الكهنة فيما بعد وهجر معابد آمون ، وأقام لآتون معابد جديدة ، فحمل منذ ذلك الوقت اسم اخناتون بدلا من امنحوتب .

أما تلك الحفلة التى كان يحييها ، والتى دعا اليها الرجال البارزين فى مملكته ، فقد أعدها لاستقبال رسول دشراته ، أحد ملوك سورية .

ارادت الملكة تى ، أم الملك امنحوتب ، أن يتخذ ابنها زوجة له من بنات الملوك التابعين له الخاضعين لتاجه ، وكانت ترمى بذلك الى ضمان خضوع تلك الشعوب البعيدة ، التى كانت كلما سنحت لها الفرصة تشق عصا الطاعة على فرعون وتمسك عن دفع الجزية .

وكان للملك دشراته ابنة فاتنة الحسن ذاع صيتها فى الاقطار شرقا وغربا ، فأرادت الملكة أن يتزوج ابنها تلك الفتاة الجميلة ، وبعثت الى الملك دشراته تنبئه بذلك ، فأجابها الى طلبها ، وأوفد رسوله الى فرعون يحمل اليه الهدايا ويقطع له عهدا باسم سيده دشراته بأن تكون ابنته « تادوو » زوجة لامنحوتب وملكة على مصر .

***

أفضى الرسول الى فرعون بمضمون رسالته ، ووضع بين يديه الهدايا التى عهد اليه سيده فى حملها الى مصر ، فتقبلها امنحوتب مبتسما شاكرا ، وأمر حجابه بأن ينزلوا الرسول وصحبه ضيوفا مكرمين فى قصره ، ودعا الرجل الى أخذ مكانه بين الحاضرين ، وأشار الى رئيس التشريفات بادخال الراقصات .

فدخلن ، وكن عشرا تليهن عشرات فعشرات .. وجعلن يعرضن على الملك وحاشيته وضيوفه آخر ما وصل اليه فن الرقص فى ذلك الوقت من سحر وابداع . ثم خرجن الواحدة بعد الاخرى ، وبقيت منهن راقصة أرادت أن ترقص أمام الملك بمفردها ، بعد أن كانت تشرف على زميلاتها ، وتدير حركاتهن ، وتقضى بدخولهن وانصرافهن من حضرة فرعون .

وبينما أنظار جميع من حضروا ذلك المجلس متجهة الى تلك الراقصة البارعة الجميلة ، وقد أخذوا بحسنها وخفتها ومهارتها ، اشار فرعون الى أحد حجابه الامناء ، فاقترب الحاجب من العرش ، وهمس امنحوتب فى اذنه :

ــ جئنى بهذه الراقصة بعد انصراف المدعوين !

مثلت الراقصة بين يدى فرعون ، خائفة مرتعدة ، ظنا منها ان الملك غاضب عليها وان رقصها ورقص زميلاتها لم ينل حظوة فى عينيه .

ولكن الملك كان يبتسم ، وجعل يخاطبها بلهجة اعادت الطمأنينة الى نفسها المضطربة ، فأدركت أن مخاوفها لم تكن فى محلها ، وأن فرعون العظيم لم يبعث فى طلبها الا لانه يريد بها خيرا .

وسألها ببشاشة ولطف :

ــ لم أرك قبل الآن بين الراقصات فى القصر . هل قضيت زمنا طويلا هنا ؟

ــ قضيت بضعة أشهر يا مولاى

ــ اتحبين الرقص ؟

ــ أحبه الى حد الجنون . وقد رغبت فيه ومارسته بالرغم من أن البيئة التى انتمى اليها لا يسمح فيها للبنات بمزاولة هذا الفن الجميل .

ـ أنت اذن من الاشراف ؟

ـ نعم يا مولاى

ـ ما اسمك ؟

ـ نفرتيتى

ـ نفرتيتى ! اسم جميل يرن فى الاذن رنة طرب ، كأنه نغم قيثارة تضرب اوتارها انامل الحسان .

سكتت الفتاة ولم تنبس ، وحاولت أن تحول نظرها عن نظر فرعون . لكن امنحوتب نهض من مكانه ، واخذ رأسها بين يديه ، وحدق اليها البصر ، وقال بلهجة حارة :

ـ نفرتيتى ، ستتوجين ملكة على مصر !

فاكبت الفتاة تقبل يدى فرعون العظيم وهى تضحك وتبكى فى وقت واحد ، وقد أوشكت تلك الكلمات التى تساقطت من فم الملك أن تفقدها الرشد والادراك ، وجعل امنحوتب يداعب جدائل شعرها الناعم بين انامله ، ويقول مرددا :

ـ ستتوجين ملكة على مصر ، فاذهبى ، وتطيبى ، وانتظرى ما يحمله اليك الغد من مسرات وسعادة ومجد وهناء ! ستتوجين ملكة على مصر ! ستتوجين ملكة على مصر !

***

هى ابنة « عاى » الحسيب النسيب ، من كبار النبلاء فى حاشية فرعون ، والحائز على رضاه ، وصاحب الشهرة الواسعة بين رجال الجيش . ولم يسمح عاى لابنته نفرتيتى بأن تمارس الرقص الا على شرط أن يكون ذلك فى قصر فرعون وبصحبة رفيقات لها من بنات النبلاء والاشراف .

وبرعت نفرتيتى فى الفن الذى عشقته الى حد بعيد ، فبايعتها زميلاتها بالزعامة ، وتولت الاشراف على حلقات الرقص ، بموافقة الملكة تى وتحت رعايتها .

ولكن الملكة لم تكن لتتصور ، فى اية حال ان يقع ابنها الشاب فى غرام الفتاة ابنة النبيل المصرى ، وهو يراها ترقص أمامه ، وأن ذلك الغرام المفاجىء سوف يفسد عليها مشروع الزواج الذى اعدته لامنحوتب ، وهو أن تستقدم له زوجته الاولى من بلد آسيوى . وقد وقع اختيارها على الحسناء « تادوو » ابنة دشراته الملك السورى .

حاولت الملكة تى ان تثنى وحيدها عن عزمه ، وأن تحمله على احترام العهد الذى قطعته باسمه للملك دشراته ، وان تقنعه بأن زواجه من فتاة أخرى غير تادوو ، قد يجر عليه مصاعب ومشكلات هو فى غنى عنها ، وأن رئيس الكهنة لن يرضى بذلك الزواج ، وان المستقبل سيكون مثقلا بالحوادث الجسام اذا ظل الملك الشاب على رأيه . لكن امنحوتب

أبى الا أن ينفذ ما عزم عليه . وكان يجيب على نصائح أمه بهذه الكلمات يرددها بلا انقطاع ، وقد أخذ بجمال الصبية الراقصة :

ـ ستتوج نفرتيتى ملكة على مصر !

***

لم يمض شهر واحد على ذلك اليوم الذى وقع فيه نظر الملك على نفرتيتى للمرة الاولى ، حتى وصل الى طيبة موكب فخم ، يتقدمه الجنود حاملين الرماح والاقواس ، ويحيط به من كل جانب العبيد والخدم حاملين الهدايا والعطور ، ويتوسطه هودج من الذهب الخالص ، قائم على مركبة تجرها الجياد ، وقد تربعت فيه ، على وسائد حمراء مزخرفة بالخيوط الذهبية ، فتاة تحاكى البدر بهاء ..

ذلك هو الموكب الذى سيره الملك دشراته الى طيبة ، وتلك هى ابنة الملك تادوو التى أعدها أبوها زوجةلفرعون ، والتىأعرض عنها أمنحوتب وفضل عليها الراقصة ابنة النبيل عاى ..

أمر فرعون بأن يكون استقبال ابنة الملك السورى بالغا منتهى الحفاوة، وأن تحل ومن معها فى القصر الملكى فى جناح خاص . ولكنه أبى أن يراها وأن ينفذ ما جاءت الفتاة لاجله من عند أبيها ..

مر أسبوع وتلاه أسبوع آخر ومرت أسابيع فشهور ، والملك باق على عزمه ، مصر على ما أبداه لأمه ، دون ان يؤثر فيه الحاح الكهنة أو ينال منه تهديدهم ..

واضطرت الملكة تى أن تعيد الفتاة الى أبيها الملك دشراته ، مع رسول يقول أن فرعون مريض وأن مرضه يحول دون زواجه !

وفى الوقت الذى كان الرسول يفضى برسالته الى الملك دشراته ، محاولا اقناعه بأن أمنحوتب لن يقدم على زواج ولن يتخذ له امرأة ، كان القصر الملكى فى طيبة يشهد حفلة زفاف بسيطة لا تتفق مع عظمة التاج

وفى تلك الساعة التى كانت فيها الاميرة تادوو تنتحب بين يدى أبيها ، وتشكو اليه ماحل بها فى مصر من خيبة أمل ، وما آل اليه حظها ، كانت نفرتيتى ـ ومعنى هذا الاسم « الجميلة آتت » ـ تضع على رأسها تاج الملك الذى وعدها به فرعون الشاب !

***

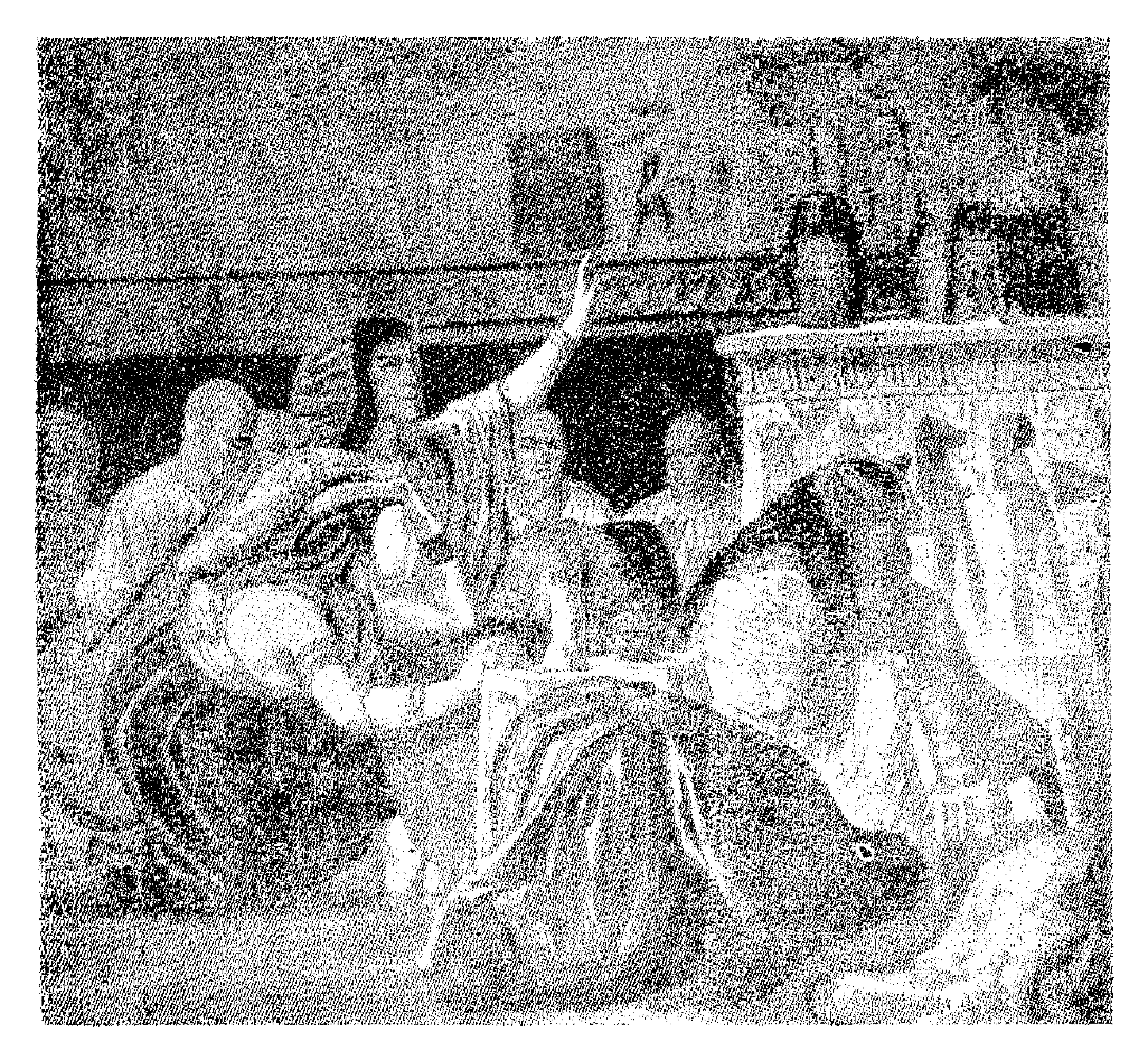
مات امنحوتب بعد أن أحدث فى مصر ذلك الانقلاب الدينى الهائل ، واتخذ لنفسه اسم اخناتون ...

ورزق من زوجته نفرتيتى سبع بنات تزوجت الثانية منهن شابا من أشراف القصر يدعى توتو ...

وهو الذى عرف فيما بعد باسم توت عنخ آمون ، وتبوأ عرش مصر بعد اخناتون !

رؤيا اخناتون

أى أم لا توافق ابنها على رأيه ،
اذا أدركت أن موافقتها تضمن له
السعادة ؟



اخناتون أو امنحوتب الرابع
(للفنان فايدنباخ)

أخذ امنحوتب الرابع أمه الملكة « تى » من يدها ، وقادها بلطف الى مقعد وثير ، فأجلسها عليه ، ووقف بجانبها وجعل يخاطبها بلهجة ملؤها العطف المقرون بالاجلال ، فقال :

ـ أماه ، لقد قضى الامر الآن ، وأصبحت نفرتيتي زوجة لى ، وهى فى هذه الساعة بين أيدى الوصيفات ، يطلعنها على ما ظهر وخفى من شئون الحريم فى القصر ، ويعددنها لما أردته لها من سعادة وهناء وعظمة ورفعة شأن . ويحز فى نفسى ، يا أماه ، أن تكونى غير راضية عنى وعنها ، والا يجد هذا الزواج قبولا لديك ، فاسمحى لى أن أطلعك على العوامل التى دفعتنى اليه دفعا ، لكى تكونى على بينة من أمرى ؛ ولكى تعلمى أننى ؛ فيما فعلت ، قد أصغيت الى وحيين : وحى الآلهة ، ووحى القلب !

فطبعت الملكة الوالدة على جبين ابنها الحبيب قبلة أفرغت فيها كل حنانها ، وقالت بصوت هادىء تتخلله رعشة الانفعال الشديد :

ـ اعلم يا بنى انك قد احببت هذه الفتاة الجميلة الساحرة ، وأن نداء الحب قد اصم أذنيك عن سماع كل نداء سواه . ولكن يؤلمنى أن يقع اختيارك على فتاة لايجرى فى عروقها دم ملكى فترفعها الىأوجك، وتضع على رأسها تاج الفراعنة ، فى حين أن ملوك المشرق يتسابقون فى عرض بناتهم عليك ، ويلقون بهن بين أحضانك وتحت قدميك ! وها هى ذى الاميرة تادوو ..

فقاطع فرعون أمه قائلا :

ـ لقد أسأت الى تادوو ،وسأوفد فىالحال الىأبيها الملك دشراته الرسل والهدايا ، وابعث اليه خطابا أبثه فيه ما تولانى من أسف وأسى، لاضطرارى الى اعادة ابنته اليه ، بعد وصولها الى مصر قادمة من سورية !

ـ انها لاهانة كبيرة ياولدى ، تلك التى ألحقتها بذلك الملك الصديق الحليف ! فقد طلبنا منه ابنته تادوو زوجة لك ، فأجابنا الى طلبنا،وأرسل الينا الفتاة فى موكب رائع . وفى أثناء الاعياد التى اقمناها فى طيبة توطئة لزواجك ، واستعدادا له ، رأيناك تعرض عن الاميرة السورية ، وتقرر اعادتها الى أبيها ، واتخاذ الفتاة نفرتيتى زوجة لك . الا تخشى . وهذا ما فعلت ، أن ينتقض عليك ذلك الملك القوى، ويحمل ملوك الاقاليم السورية الآخرين على الانتقاض أيضا ؟

ـ اذا كان الملك دشراته يفقه معنى الحب ، ويدرك مدى سلطانه على القلوب ، ويقدر الالهام الذى يهبط أحيانا على الناس من وراء الحجب،

والذى تتخذه الآلهة وسيلة لمخاطبتنا من العوالم الاخرى ، فانه لن يغضب، ولن ينتقض !

حدقت الملكة النظر فى فرعون ، وبدت على وجهها امارات الدهشة، وقالت :

ـ وأى علاقة للآلهة والعوالم الاخرى بهذا كله ؟

فانتصب امنحوتب بقامته النحيلة وأغمض عينيه ، وأخذ رأسه بين يديه ، وخيل لأمه انه انتقل بفكره وعقله وبصيرته الى عالم غير هذا العالم، وسمعته يقول وفى صوته رنة لم تعهدها فيه من قبل :

ـ الرؤيا يا أماه !.. الرؤيا ! لم انبئك الى الآن بما حدث ، ولم أنذرك بما سيحدث غدا .. فاسمعى :

ـ لقد رأيت فى اليقظة ـ لا فى الحلم ـ صفحة ملكى محفورة على جبهه الدهر بيد الاله آتون . نعم آتون ، ولا أقول آمون !. لقد قرأتها واعدت قراءتها ، وأدركت معناها ومغزاها وما كتب لى فيها من راحة وغناء ، ونجاح وفشل ، وتأييد واستنكار !. لم يقدر لى فى تلك الصفحة أن أتزوج ابنة ملك ، بل فتاة من بنات الشعب ، وقد تزوجتها . ولم يقدر لى أن أظل تحت رحمة الكهنة الذين يستغلون ايمان الشعب فيستبدون به وبفرعون ايضا . بحجة أنهم ينفذون ارادة آمون . وانى لمقدم ، اليوم أو غدا أو بعد غد ، على عمل سوف يهز المملكة هزا ، ويفتح أعين الشعب للنور الحقيقى والهداية التى أريدها له ، ويجعل من مصر الخصبة ونيلها المبارك تربة ينبت فيها الدين الجديد الذى عزمت على الدعوة اليه ،وتزدهر فى ارجائها عبادة آتون . وسأتخذ لنفسى اسما آخر غير الذى أحمله الآن : لن ادعى « امنحوتب » بعد اليوم ، بل « اخناتون » وسأطهر النفوس من فسادها ، والعقول من ضلالها ، والاجسام من سقامها !

سكت فرعون ، والعرق يتصبب من جبينه . ثم فتح عينيه وأرسل الى أمه نظرة وادعة ، وأضاف قائلا بلهجة المتوسل الراجى :

ـ اماه !.. هذا ما اريد أن أفعله ، وهذا ما أريد أن تكونى لى عونا فى القيام به ، وهذا ما سأجد فى نفرتيتى المحبوبة دافعا لى فى سبيل تحقيقه !

والقى فرعون بنفسه بين ذراعى الملكة تى ، فجعلت الام تداعب رأس ابنها ، وتهدهده كالطفل الرضيع ، وتغمره بدموعها ...

واضاف فرعون بلهجة فيها تذكير وفيها عتاب :

ـ تقولين يا أماه : ان نفرتيتى من بنات الشعب.. هذا صحيح.. ولكن أنت ، ألست أيضا من بنات الشعب ؟

كان امنحوتب الرابع ابن امنحوتب الثالث ، شخصية يحوطها الغموض ويكتنفها الابهام . قيل أنه عاش أربعين سنة ، وقيل ثلاثين

فقط . وقد جلس على عرش مصر من سنة ١٣٧٥ الى سنة ١٣٥٨ قبل الميلاد ، وكان جميلا ، متأنقا ، رقيق الشعور، سريع التأثر ؛ محبا لرعيته، كثير العطف على الفقراء والمعوزين ، صارم الرقابة على الحكام والعملاء ، واسع الاطلاع ، ملما بشئون الدولة كبيرها وصغيرها ،شديد الحدب على أسرته . وقد أحب زوجته نفرتيتى حبا قلما دون التاريخ القديم والحديث مثيلا له .

علق بها وهى ترقص أمامه ، فى حفلة أقيمت فى قصره بطيبة ، قبيل زواجه ، فاختارها رفيقة لحياته ، وأحلها محل خطيبته ، وأجلسها على العرش ، فأنجبت له سبع بنات ، أصبحت احداهن فيما بعد زوجة لفرعون مصر توت عنخ آمون .

ولم يكن اخناتون مخطئا عندما قال لامه : انه سيجد فى نفرتيتى دافعا له فى سبيل تحقيق رؤياه . .

فلقد اخلصت له بنت الشعب اخلاصا لم تشبه شائبة، وافرته على ما أراد لبلاده وأمته من انقلاب دينى واصلاح اجتماعى فكانت تسدى اليه النصائح والآراء ، وتعاونه فى نشاطه المتشعب الانحاء ، وتسهر معه الليالى فى اعداد العدة لاحباط الخطط التى كان كهنة آمون يتفننون فى احكام وضعها وتنفيذها ، للتخلص من ذلك الملك الثائر على التقاليد الموروثة والمعتقدات الراسخة فى الأذهان .

أعلن اخناتون أن الشمس ليست الها يمثل على الارض فى صورة انسان أو حيوان ، وأن الاصنام التى يسجد لها الناس فى المعابد انما هى آلهة زائفة ، وأن فى العلا ربا واحدا يتجلى لعباده فى «قرص الشمس» آتون ، فينير العالم ويبدد الظلمات ، وان اخناتون ، فرعون مصر ، هو « ضياء » ذلك القرص الوهاج !

وصدرت الاوامر باغلاق معابد آمون ، وتشتتت هيئة الكهنة ،وهجر فرعون عاصمة ماكه طيبة وأنشأ لنفسه عاصمة أخرى سماها « خوت ـ آتون» أى «أفق الشمس» وشيد فيها القصور للاسرة المالكة ، والهياكل للمعبود الجديد ، وراح يبذل العطاء بلا حساب لارباب الفنون من نحاتين ورسامين ونقاشين لكى يتسابقوا فى زخرفة العاصمة وتجميلها ، بحيث تفوق سابقتها بهاء ورونقا وجلالا .

لم تشهد مصر فى تاريخها الطويل الحافل بالحوادث الجسام ، انقلابا مثل ذلك الانقلاب الهائل ، الذى لم يتناول الدين فقط ، بل امتد أيضا الى السياسة والادارة والمجتمع .

وكانت الاسرة المالكة ملتفة حول عميدها ، متضامنة معه ، مؤيدة له فى أقواله وأعماله ، ولم تكن أمه « تى » أقل اندفاعا وحماسة فى ذلك من زوجته « نفرتيتى » .

وأدخل فرعون للمرة الاولى فى تقاليد الاسرة عادة لم يسبق للشعب أن ألفها من قبل ، وهى خروج الملك فى مواكبه الرسمية ، وروحاته

وغدواته الخاصة ، محوطا بزوجته وبناته . فرحب الناس بهذه الخطوة الموفقة ، التى رأوا فيها ميلا من صاحب العرش الى التقرب من رعيته ، فصاروا يحفون بفرعون وأسرته ويهتفون ويهللون !

وعمت البلاد موجة من الفرح والحبور ، واعتقد الشعب أن المستقبل لن يحمل فى طياته لأبناء مصر جميعا ، الكبار والصغار ،والاشراف والصعاليك ، غير الهناءة واليمن والرخاء .

ولكن كهنة آمون ظلوا لفرعون بالمرصاد ، وانصرفوا الى الدس فى الخفاء ، حتى اذا ما قصفت حياة ذلك المصلح الشاب ، وثوى فى مرقده الاخير ، خرج الدساسون من الظلام وراحوا يهدمون ما بنى ، ويمحون ما ترك من أثر !

لم يدم عهد « آتون » وضياؤه « اخناتون » وأفقه « خوت ـ آتون » غير اثنى عشر عاما ـ عادت مصر بعدها الى ما كانت عليه ، وتم القضاء على الدين الجديد فى عهد الرجل الذى تزوج ابنة اخناتون ، واتخذ لنفسه اسم « توت عنخ آمون » .

***

أحاط الغموض بحياة نفرتيتى بعد موت زوجها ، ولم تدلنا الآثار الباقية عن أسرتها على أى عمل أقدمت عليه ، بعد أن دالت دولتها ، ولم تعد فى القصر ربة عرش بل أما لربة العرش ، وحماة لفرعون !

وكان امنحوتب الرابع أو اخناتون قد أمر بصنع التماثيل له ولأمه وزوجته وبناته . وأدت أعمال الحفر والتنقيب ـ فى المكان الذى كانت عاصمته قائمة فيه ، والذى يعرف اليوم « بتل العمارنة » ـ الى كشف طائفة من الآثار الرائعة ، كان بينها تمثالان لفرعون وزوجته ، ورسوم كثيرة عن طرق العبادة ، وتقديم القرابين لقرص الشمس آتون .

أما تمثال الملكة نفرتيتى ، فهو آية من آيات الفن كما كانت صاحبته آية من آيات الجمال . وقد أخفى ذلك التمثال فريق من العلماء الالمانيين ، الذين عثروا عليه وعلى سواه من بدائع الفن المصرى القديم ، ثم تمكنوا بحيلة شيطانية من نقله خلسة الى بلادهم ، حيث سلموه لحكومتهم ، فعرضته فى متحف برلين وكان بين محتويات ذلك المتحف أبدع قطعة تسترعى الانظار وتثير الشجون وتدعو الى التفكير .

والراقصة المتوجة ، التى استولت على مشاعر فرعون ، وسحرت جماهير الشعب منذ أكثر من ثلاثة وثلاثين قرنا ، وساهمت فى أعظم انقلاب شهدته مصر ، واختطفت من وطنها اختطافا ، وظلت منذ بعثها الجديد ، تحير بنظراتها العقول وتخلب الالباب ، تلك الملكة التى جعلت الحب يطغى على كل اعتبار ويتبوأ عرشين فى آن واحد، عرش الملك وعرش القلب ، تلك المرأة التى أرادها « آتون » رفيقة لصفيه وحبيبه ، تحترق الآن فى ديار الغربة لوعة على ماضيها ، وتذوب شوقا وحنينا الى مرتع صباها ، ومسرح عزها ، ومرقد رفاتها !

نفرتيتي ، أرملة الزوجين

الملكة الجميلة الساحرة ، بكت زوجا عرفته ، اخناتون ، وبكت زوجا لم تعرفه فمن هو ؟



الملكة نفرتيتى زوجة اخناتون

الموكب يسير باقصى سرعة ممكنة، تنفيذا لأوامر الملك «سوبو الهدما» وعملا باشارة ابنه «سوبو الصغير» الذى يتوق للوصول فى أقرب وقت الى مصر ، حيث الملكة « نفرتيتى » الحسناء ، أرملة الملك « اخناتون » تنتظر على أحر من الجمر !

كل من فى الموكب يعرف مكانه منه ، ويحرص على أن يظل النظام سائدا ، والاوامر نافذة ، فلا أحد يسبق أو يتخلف ، ولا أحد يشرد الى اليمين أو الى اليسار : ثلثمائة رجل أو أكثر ، بين فرسان ومشاة ، معهم عشرون مركبة تجرها الثيران ، تحمل خمسا وعشرين من عذارى بلاد الحيثيين، اختارهن الملك بنفسه، ومعهن الهدايا الثمينة النادرة، من أسلحة وحلى ومجوهرات ، وقطع من النسيج الفاخر ، وقوارير الاصبغة والعطور .

وقائد الموكب ، المشرف على سيره ، ونظامه ، المسئول عن سلامته ، يروح ويجىء بين الطليعة والمؤخرة ، ويراقب الجناحين ، ولكن بدون أن يغرب عن باله القسم الرهيب الذى قطعه على نفسه تجاه أخته ، قبل أن يغادر بلاده فى طريقه الى مصر .

اسمه «حاطوم» وهو ضابط من ضباط الحرس فى قصر الملك سوبو الهوما ، وأخته « ثايثانا » وصيفة من وصيفات الملكة ، وربيبة القصر منذ نعومة أظفارها .

كل ليلة ، قبل أن يغمض عينيه ويستسلم للنوم ، يردد حاطوم بينه وبين نفسه الكلمات التى قالتها من قبل أخته ثايثانا ورددها هو ويده على صدره :

«لن يصل الامير سوبو الصغير الى مصر : فاما أن يعدل عن متابعة السير ويقفل راجعا الى بلاده ، واما أن يقتل فى الطريق فيحول الموت دون وصوله ! »

بذلك الوعد ربط حاطوم نفسه تجاه أخته . وبتلك الكلمات التى اقسم على العمل بموجبها ، تعهد بخيانة المهمة التى وضعها الملك أمانة فى عنقه ، وهى الوصول بالموكب ومن فيه بالسلامة الى أرض مصر .

وما تألف الموكب بأمر الملك ، الا ليرافق ابنه سوبو الصغير الى حيث تنتظره المرأة التى طلبته زوجا لها : نفرتيتى !

تحرك الموكب فى فصل الربيع . ووقع الاختيار على الليالى المقمرة من شهر الازهار ، ليكون السفر مريحا ، والجو معتدلا ، والنسيم عليلا ، فى النهار أو بين غروب الشمس وشروقها .

وبينما الموكب يطوى فى مراحله السهل والجد ، كان رجل

وامرأتان مستسلمين بلا انقطاع لهواجس يتخللها الامل والرجاء والشك واليـــأس !

امرأة في مصر تعد الساعات ، وتتضرع الى الرب آتون الذى تعبده، بأن يحرس الشاب القادم اليهـا ، والذي لا تعرفه ، وان كانت عازمة على اتخاذه زوجا لها ·

وامرأة في بلاد الحيثيين تعد الساعات مثلها ، وتصلي الى آلهة قومهـا بأن تقرب اللحظة التي يعدل فيها الشاب المسافر الى مصر عن متابعة طريقه، فيرجع اليها حيا أو ميتا ، لانها تحبه ولا تريده زوجا لغيرها من النساء ·

ورجل حائر بين امرين، تائه بين عهدين : فاما ان يصل بالموكب الى مصر فيخون اخته ويسبب يأسها أو موتها من الحزن ، واما أن يقتل الشاب الذى يحرس موكبه ويقوده ، فيخون الملك الذى وضع فيه ثقته ، واختاره من بين جميع الضباط رائدا لابنه ·

فكر حاطوم في مخرج من المأزق وذلك بأن يحاول اقنـاع ابن الملك بالعدول عن مواصلة السير والرجوع الى وطنه ·

ولعن الضابط الساعة التى خطر فيها لملكة مصر الارملة أن تطلب من ملك الحيثيين ايفـاد ابنـه الذى لا تعرفه الى مصر ، ليصبح لهـا زوجا بعد زوجها الملك الراحل !

***

كانت نفرتيتي ، في حياة اخناتون ، الزوج الملك الفيلسوف المتدين ، أشد حماسة منه في نشر المذهب الذى نادى به وفرضه على الكهنة فرضا ، وتحمس له الشعب واعتنقه ، وهو مذهب الرب الواحد وعبادته في صورة « قرص الشمس آتون » !

وهي التى اختـارت له اسمه الجـديد « اخناتون » أى « نعمة قرص الشمس » بدلا من اسمه السابق « امنحوتب الرابع » وهي التى وفرت له ، بحبها المخلص العميق ،وارشادها وتفانيها وشجاعتها ، القوة الهائلة التي كان لا بد له منها لمواجهة عنـاد الكهنة ، واحباط مؤامراتهم ، وازالة العقبات التى أقاموها في سبيله ·

تولى الملك الشاب عرش الفراعنة بمصر سبعة عشر عاما ، من سنة ١٣٧٥ الى سـنة ١٣٥٨ قبل الميلاد تقريبا ، وقبل موته بسنتين ، تسرب الوهن الى نفسه ، وتغلب فيها اليأس على الرجاء ، وايقن أن كهنة « آمون » سوف ينتصرون عليه عاجلا أو آجلا ، وقرر أن يهادنهم ، ولو كان في ذلك رجوع عن دين التوحيد الذى نادى به ، وعوده الى المذهب القديم وطوس العبادة السابقة .

وللمرة الاولى دب الخلاف بين الزوج وزوجته ، بين الملك والملكة ، بين اخناتون ونفرتيتي ·

أبت الملكة الحسناء أن تكفر بعقيدتها · واشتد الصراع الرهيب بينهما

وبين الكهنة · ووقف الملك موقف المتردد الحائر ، فحبه لزوجته لا يزال قويا ، ولكن صحته المتداعية تجعله غير قادر على الصمود والمقاومة فى وجه التيار الذى اصطنعه الكهنة وأنصارهم ، ممن كانوا يجنون الفوائد والمغانم من المتاجرة بالدين واستغلاله لمصالحهم ·

ولما مات الملك وهو فى مطلع العقد الثالث من عمره ، وجدت نفرتيتى نفسها وحيدة أمام ذلك التيار الجارف ، وليس معها غير بناتها السبع ، من الفقيد الغالى ·

ومع ذلك ، فقد ظلت ماضية فى طريقها ، على أمل أن تعيد الى دين التوحيد ومذهب آتون مقامهما ومكانتهما ، فى الايام المقبلة ·

لكنها أدركت أنها أضعف من أن تبلغ هذا الهدف ، وقد أصبحت أرملة ، لا سلطة شرعية لها ، ولا جيش عندها تستعين به لفرض ارادتها ·

ففكرت فى اتخاذ زوج يحل محل الزوج الراحل ، وهداها التفكير الى التوجه بهذه الرغبة الى الاسرة المالكة فى بلاد الحيثيين ، وهى مرتبطة بروابط القرابة والرحم مع الاسرة المالكة فى مصر ، فنساء الاسرتين كن زوجات للملوك وأمراء وقواد فى الدولتين الجارتين · فضلا عن المحالفة الهجومية والدفاعية التى كانت قائمة بينهما فى ذلك الوقت ·

أوفدت نفرتيتى اذن رسلها الى سوبو ألهوما ملك الحيثيين · وطلبت منه أن يزوجها ثالث أبنائه سوبو الصغير ، وهو يحمل اسم أبيه ، وتعرف عنه الملكة الشابة ، أنه جميل شجاع مقدام ، وان كانت لم تره فى حياتها ، ولم تقع عليه عيناها ، ولكنها شعرت بأنه الرجل الذى يمكن أن تتخذه سندا لها فى المحنة النفسية القاسية التى تجتازها ·

هل فكرت فى أن تقوم بانقلاب يجعل من ذلك الامير الغريب ملكا على مصر ليقف بجوارها فى صراعها ضد الكهنة ؟ أو فكرت فى أن تنتقل على يده وبفضله دين التوحيد الذى اعتنقته ووقفت له حياتها ، من مصر حيث يهدده الانهيار ، الى بلاد الحيثيين حيث قد يساعدها الحظ لنشره ، والتبشير بمذهبه ، وحمل الناس على تطبيق مبادئه وطقوسه ؟

هذا سر حملته نفرتيتى معها الى القبر ، مع الاسرار الكثيرة التى دفنت مع الملوك والملكات فى تلك العصور الغامضة ·

***

لبى الملك سوبو الهوما نداء الارملة الحسناء بعد تردد طويل وتفكير عميق · وأوفد ابنه سوبو الصغير فى ذلك الموكب الفخم الذى عهد بقيادته الى صفيه ومؤتمنه الضابط حاطوم ·

وسبق الموكب الى مصر ثلاثة رسل ، بين سفر كل منهم وسفر الآخر ثلاثة أيام ·

حملوا الى الملكة السابقة الخبر السار الذى أعاد الامل الى نفسها ،

فباتت تنتظر وصول الزوج الثانى ، وتعد العدة لعمل ما ، تقدم عليه عندما تأزف الساعة .

وكان زوج ابنتهـا فى أثناء ذلك قد تبوأ العرش بمساعدتها ، وبات حائرا بين الاحتفاظ باسمه « توت عنخ آتون » ارضاء لها ، أو تغييره باسم « توت عنخ آمون » نزولا على الكنهة واتقاء لشرهم !

والموكب فى طريقـه ، من بلاد الحيثيـين ، يقترب من حـدود الدولة المصرية !

الوقت يمر ، والايام تتتابع ، والضابط حاطوم يداعب سيفه فى كل مساء ، ثم يعمد فى كل صباح الى التحايل على سوبو الصغير ، ابن الملك ؛ لاقناعه بالعودة الى بلاده ، وبأن مشروع الزواج الذى هو قادم عليه محفوف بالمخـاطر ، قد ينتج عنـه ما يضر بالاسرتين ، ويثير الحقـد والتفرقة بين البلدين .

لكن الامير الشاب لم يقتنع ، بل قـرر متابعة السـير ، للوصول الى مصر فى أقرب وقت .

وقرر الضابط ، بعد أن يئس من اقنـاعه ، أن يغتاله تنفيذا لعهـده تجاه أخته .

لا يريد سوبو الصغير أن يرجع الى بلاده حيـا ، فليرجع اليهـا اذن جثة هامدة !

وعند أطراف الصحراء ، فوجئت القافلة ذات يوم بالضابط حاطوم يعلن ، عند الفجر ، أن الامير سوبو وجد مقتولا فى فراشه ، بضربة سيف مزقت صدره واخترقت منه القلب ، وأن على كل واحد من المرافقين له ؛ أن يساهم فى معرفة القاتل والاقتصاص منـه . وأن الموكب سيتوقف عن السير الى الامام ، ويعود أدراجه الى عاصـمة المملـكة ، حاملا جثة القتيـل الى الملك !

***

لم يقتنع سوبو ألهوما بما نقله اليه الضابط ، ولم يتردد فى اتهامه بأنه هو القاتل ، وبأن أخته ثايشانا هى المحرضة له على اقتراف جريمته .

وأمر بأن يقتل حاطوم بضربة سيف تمزق صدره وتخترق قلبه ، كما قتل هو الامير الشاب الذى عهد اليه بحراسته .

واعترفت الاخت بالحقيقة . ولكن هذا لم ينقذها من الموت أيضا . فقد أمر سوبو ألهوما بوضعها فى كيس والقائها فى بئر !

وبكت الملكة نفرتيتى زوجها الثانى الذى لم تعرفه ، بعد ان بكت زوجها الاول الذى ذاقت معه السعادة والهناء .

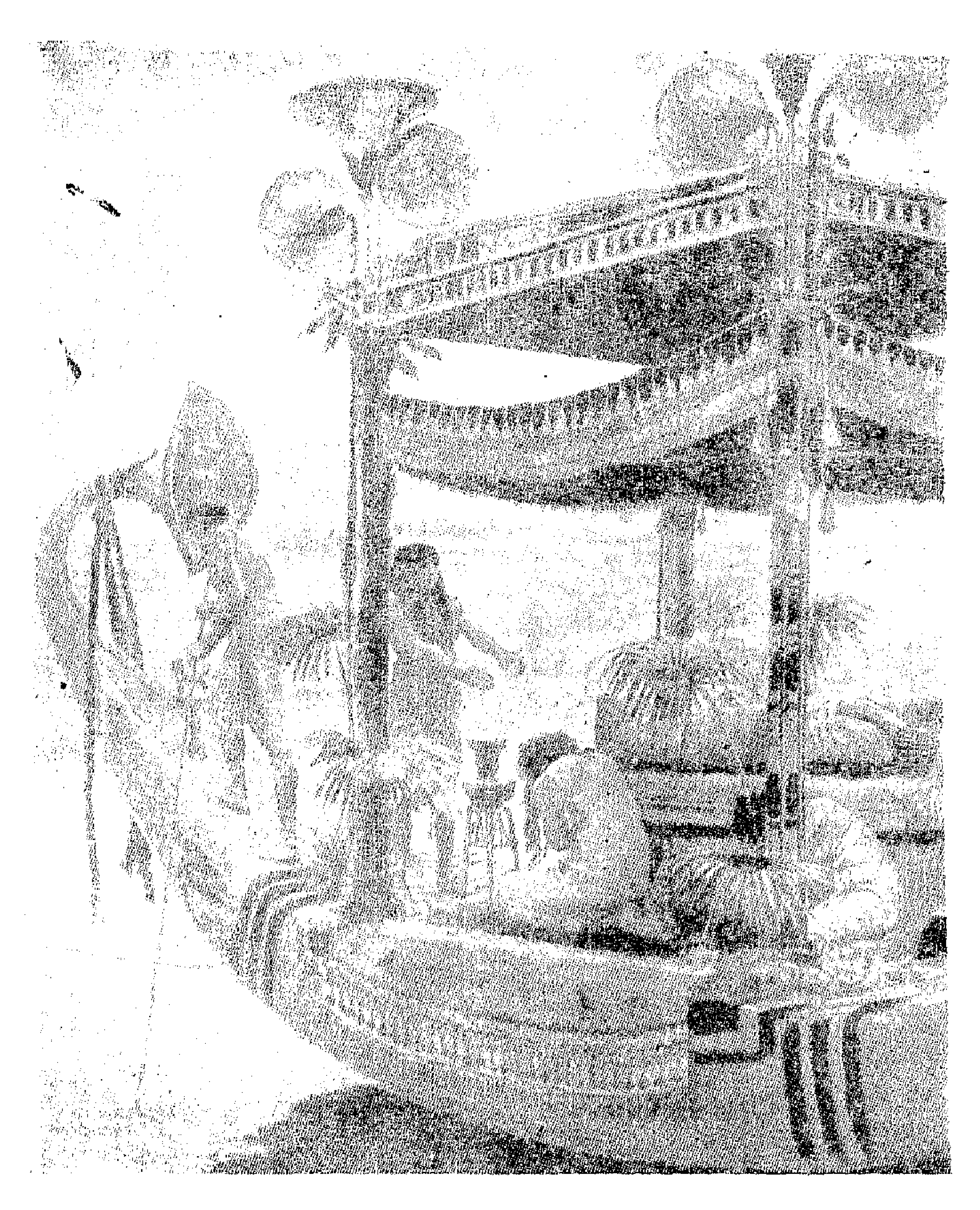
وبكت أيضا آمالها وأحلامها . وحفرت الدموع آثارا عميقة على الخدين الناعمين ، خدى أجمل ملكة جلست على عرش ، منذ أن وجدت العروش وتبوأتها النساء !

فكانت نفرتيتي ، ربة الحسن في عصرها وفي جميع العصور ، أرملة مرتين !

وماتت حزينة كئيبة ، في الثانية والعشرين من العمر .

سيتي واليتيمة الحسناء

تيتمت ثلاث مرات ...
وأبت أن تتزوج ...
ودفنت نفسها حية فى قصر ...



... ونقل جثمان فرعون المحنط
من ضـــفة الى أخــــرى ...

الخبر الذى جعل القوم يفرحون ويتنادون للاجتماع ، هو أن فرعون مصر سيتى الاول قادم على رأس جيش لجب ولتأديب العصاة فى اطراف مملكته وملحقاتها ، وأنه يقترب من معاقلهم فى زحف رهيب

لقد دب الرعب فى نفوس الخارجين على طاعته . ففرت قبائل « شاسو » نحو الشمال ممزقة الشمل لا تلوى على شىء ، والتحقت بحلفائها من الاموريين والخيبريين وهم العبرانيون . والفريق العاصى من سكان روتينو ، وكل هؤلاء يبغون الصمود ومواجهة الجيش المصرى الزاحف . فى المرتفعات الجنوبية من جبال لبنان ، محتمين بها ، على أمل أن يصل حلفاؤهم الحيثيون من الشمال لشد أزرهم ودفع الخطر الداهم عنهم .

أولئك الهاربـــون الفازعون هم الذين تستعد العشيرة اللبنانية الصغيرة ، وأنسباؤها القادمون لنجدتها من ربوع دمشق وهضابها ، للانتقام منهم . والثأر لما سفكوه من دماء رجالها . ولمن ساقوهن سبايا من نسائها وبناتها .

وقعت تلك المذبحة فى عهد رمسيس الاول عندما تحالف الحيثيون مع أولئك الاقوام لمهاجمة مصر ، فرفض ملوك الثغور الفينيقية أن ينضـــموا اليهم ، ونسجت على منوالهم العشائر الضاربة فى الجبال والوديان بين الساحل ومدينة دمشـق ، ومن بينهـا العشـيرة التى يودها « رانو » والنازلة فى الغابة الواسعة ، عند منابع الاردن .

فوجئت العشيرة ذات يوم بهجوم جيرانها عليها ، انتقاما منها لأنها خذلتهم ، وبالرغم من النجدة التى تلقتها من أصدقائها فى الساحل والداخل ـ غلبت على أمرها ، وانصرف عنها المعتدون دافعين أمامهم جميع النساء والعذارى سبايا ذليلات . بعد أن قتلوا معظم الرجال وفر الباقون هائمين على وجوههم فى خفايا الجبال .

خمسون رجلا أو أقل نجوا من تلك المجزرة ، ولم تبق بينهم غير فتاة واحدة هى « حانيت » ابنة « رانو » الوحيدة ، التى سـقط أبوها فى المعركة ، وسقط حوله أخوتها الاربعة ، وانتحرت أمها على جثته !

تلك البقية الباقية من عشـيرة رانو هى التى فرحت وهللت ونحرت الذبائح ، يوم بلغها خبر قدوم الجيش المصرى بقيادة فرعون متجها الى الشمال ، أى الى مقر العشيرة ومعقلها

وحشد أعداء فرعون فى النهاية جموعهم عند بلدة يانوحام المنيعة الحصينة عند سفوح لبنان الجنوبية وهناك دارت المعركة الفاصلة . والى هناك وافى فرعون سـيتى حلفـاؤه من الفينيقيين القادمين من الساحل ، وأبناء العشائر الوافدين من ضواحى دمشق ، وأنسبائهم

الهابطين من اهالى الجبال او النافرين من بطون الوديان ، وهم الذين عرفهم قدماء المصريين باسم « لبنانو » (١) .

وكان فى مقدمة الملبين لداعى الثأر والانتقام ، الرجال الباقون من عشيرة رانو ، وفى طليعتهم الفتاة الوحيدة ، احنيت ، ابنة الزعيم الراحل .

كانت المعركة دموية فاصلة . قادها سيتى الاول نفسه فى جميع مراحلها ، التى استمرت من شروق الشمس حتى غروبها . وقد منى فيها أعداء فرعون بهزيمة منكرة ، فتكدست أشلاؤهم فى الميدان ، وهربت فلولهم تطلب النجاة فى المسالك الوعرة ، وبقى فى قبضة الجيش المنتصر عدد كبير من الاسرى .

حاربت عشيرة رانو وفتاتها الباسلة بشجاعة وايمان ، مبعثهما الرغبة فى الثأر والانتقام أولا . والولاء لفرعون ثانيا .

وشكر سيتى الاول حلفاءه على نجدتهم . وهنأهم على بسالتهم ، وطلب منهم أن يعودوا الى مواطن اقامتهم . مطمئنين على سلامتهم ، غير قلقين على غدهم .

وتقدم منه كبارهم ورجوا منه أن يتقبل منهم هدية من نبت أرضهم وانتا ج تربتهم ، تكون لديه دليل أخلاصهم وولائهم .

فقبل فرعون ما عرضوه عليه .

وألقى رجال العشائر اسلحتهم ، وحملوا فئوسهم ، وانطلقوا فى الجبال يقطعون الاشجار كبيرة وصغيرة ، ويفصلون الاغصان عن الجذوع والجذور ، ويهذبونها ويصقلونها ، ويحملون ذلك كله الى فرعون . ولما هم الجيش بالتحرك عائدا الى مصر بجموع الاسرى وأكداس الاسلاب ، تقدمت الفتاة حانيت ، وطلبت من فرعون أن يسمح لها بأن ترافقه مع بنى قومها . أو على الاصح مع من بقى منهم حيا بعد المعركة ، وأن يتولى رجال العشيرة حراسة الهدية التى قدموها الى سيتى الاول

أكوام محزومة بالحبال ، من جذوع الارز الصلب ، والسنديان الضخم ، والصنوبر المشوق ، ورزم منسقة من افنان النسرين والريحان ، والاعشاب الطيبة ، ولعيدان العطرية ، والاذهار المجففة : ذلك هو نبت الارض وانتاج التربة ، وتلك هى الهدية التى حملها ابناء العشيرة الوفية وحرسوها فى الطريق ، وهم ذاهبون الى مصر مع الجيش العائد اليها ، ظافرا منصورا ...

***

فى مصر ، أصر الباقون من عشيرة رانو على أن يلحقهم سيتى الاول بصفوف جيشه ، لكي يساهموا فى الحروب الآتية ، كما ساهموا فى لحرب التى انتهت بمعركة يانوحام . فأجابهم فرعون الى رغبتهم .

---

(١) لبنانوهم اللبنانيون ـ سكان جبل لبنان

وارادت فتاتهم ابنة رانو ان يكون مصيرها كمصيرهم : ولكن سيتى الاول رفض أن يحقق لها تلك الرغبة ، وقال: انه خير لها أن تبقى فى قصره ملازمة لزوجته « تولى » وانه يشملها برعايته ، ولكى تجد فى كنفه وفى كنف الملكة ، ما فقدته من حنان الاب والام ، بعد الكارثة التى حلت بالعشيرة فى عهد أبيها ٠

ورضخت حانيت لارادة فرعون ٠ والتحقت بخدمة الملكة ، واستحوذت على عطفها ، وأصبحت أقرب الوصيفات الى قلبها ٠

واستأنف سيتى الاول حروبه وغزواته ، فى الشرق والغرب والجنوب . ولما استقر له الامر واطمأن الى سلامة المملكة وحدودها من هذه الجهات الثلاث ، تطلع الى الهدف الاكبر الذى وضعه نصب عينيه منذ أن خلف اباه على العرش ، وهو اخضاع الحيثيين فى اقصى الشمال : ووقفهم عن مواصلة عدوانهم على أطراف الاقاليم الآسيوية من الدولة المصرية ٠

زحف بجيشه مرة أخرى ، فى الطريق الذى سلكه من قبل الى مواطن الشاسو وحلفائهم ، ووجهته فى هذه المرة أبعد منها فى المرة السابقة . ودارت رحى معارك جديدة بينه وبين ملوك الحيثيين والشعوب التى التفت حولهم ، وانتهى ذلك الصراع العنيف بعقد معاهدة صلح بين مصر وبلاد الحيثيين ، تعد أول وثيقة من نوعها فى التاريخ

وبعد عودة سيتى الاول الى بلاده ، ليبشر شعبه ببدء عهد جديد يسوده الوئام والسلام كان يحمل معه للفتاة اليتيمة التى تركها فى قصره ، خبرا جعل الدموع تنفجر من عينيها الواسعتين ...

لقد مات جميع أبناء عشيرتها فى خلال تلك الحملة الشاقة . ماتوا موت الابطال ،فى ميادين القتال ، فكانوا شجعانا أوفياء الى آخر نسمة من حياتهم

أصبحت حانيت يتيمة مرة أخرى : لم يبق لها أحد من قومها على قيد الحياة ! .. العشيرة كلها انقرضت !

وبقيت فتاتهم وحيدة فى العالم !

لكنها وجدت العزاء على ما حل بها ، وعلى الاحزان التى عانتها ، فى العطف الذى غمرها به فرعون سيتى وزوجته تولى ٠

مرت الاعوام والفتاة تعيش فى القصر وتلازم الملكة وتتفانى فى خدمتها ...

أعوام ذاقت فيها مصر حلاوة السلم ورغد الهدوء . وانصرف خلالها سيتى الاول الى تشييد المعابد والهياكل ، وحفر تاريخ فتوحه ومآثره على لوحات من الحجر نصبت فى جميع انحاء المملكة ، وخص بجزء كبير من اهتمامه ، المقبرة التى أعدها لنفسه ، لتكون مأوى جسده بعد موته ، ومرتع روحه فى العالم الآخر :

واستخدم فرعون في تلك المنشآت العظيمة ، اخشاب الاشجار التي قطعها له سكان الجبال ، بعد معركة يانوحام ، وجاءوا بهــا مع جيشه عند عودته الى مصر .

حاول الملك المحظوظ ، الذي ضحك له السعد في أيام الحرب وأيام السلم على السواء ، أن يقنع الفتاة اليتيمة الحسناء بأن تتزوج ضابطا من ضباط جيشــه ، الذين حاربوا معه في بلادها ، وان تختار بنفسها ذلك الزوج الذي يرجوه لها ، وتعيش في هناء وسعادة مع رجل يخصها بحبه ، ويشملها بحمايته ، فتبادله الحب وترعاه بعنايتها

لكن حانيت رفضت : ان أملها الوحيد في الحيــاة ، والهناء الذي تطمع فيه ، والسعادة التي تتوق اليها كل هذا مفرغ في امنية واحدة ، وهي أن يمتد العمر بفرعون ، وأن تبقى هي ساهرة على راحة زوجته !

لم يمتد العمر بفرعون !

فقد تبوأ عرش مصر اقل من عشرة أعوام من سنة ١٣١٣ الى سنة ١٢٩٢ قبل الميلاد .

ومات قبل أن ينتهي المهندسون والعمال من اعداد المقبرة التي سيدفن فيها . وقد وضع جثمان فرعون في تابوته ، بعد تحنيطه ، والعمل في انجاز المقبرة لا يزال جاريا على قدم وساق ...

ويوم نقل الجثمان المحنط على مركب الجنازة ، من ضفة النيــل الى الضفة الاخرى ومن حوله النساء النادبات ، نهضت من بينهن حانيت اليتيمة ، وتناولت من طيات ثوبها خنجرا عاري النصــــل ، فاجتزت به شعرها المسترسل على ظهرها . وألقت خصلاته الطــويلة السوداء على النعش الذي ضم الجثمان العزيز !

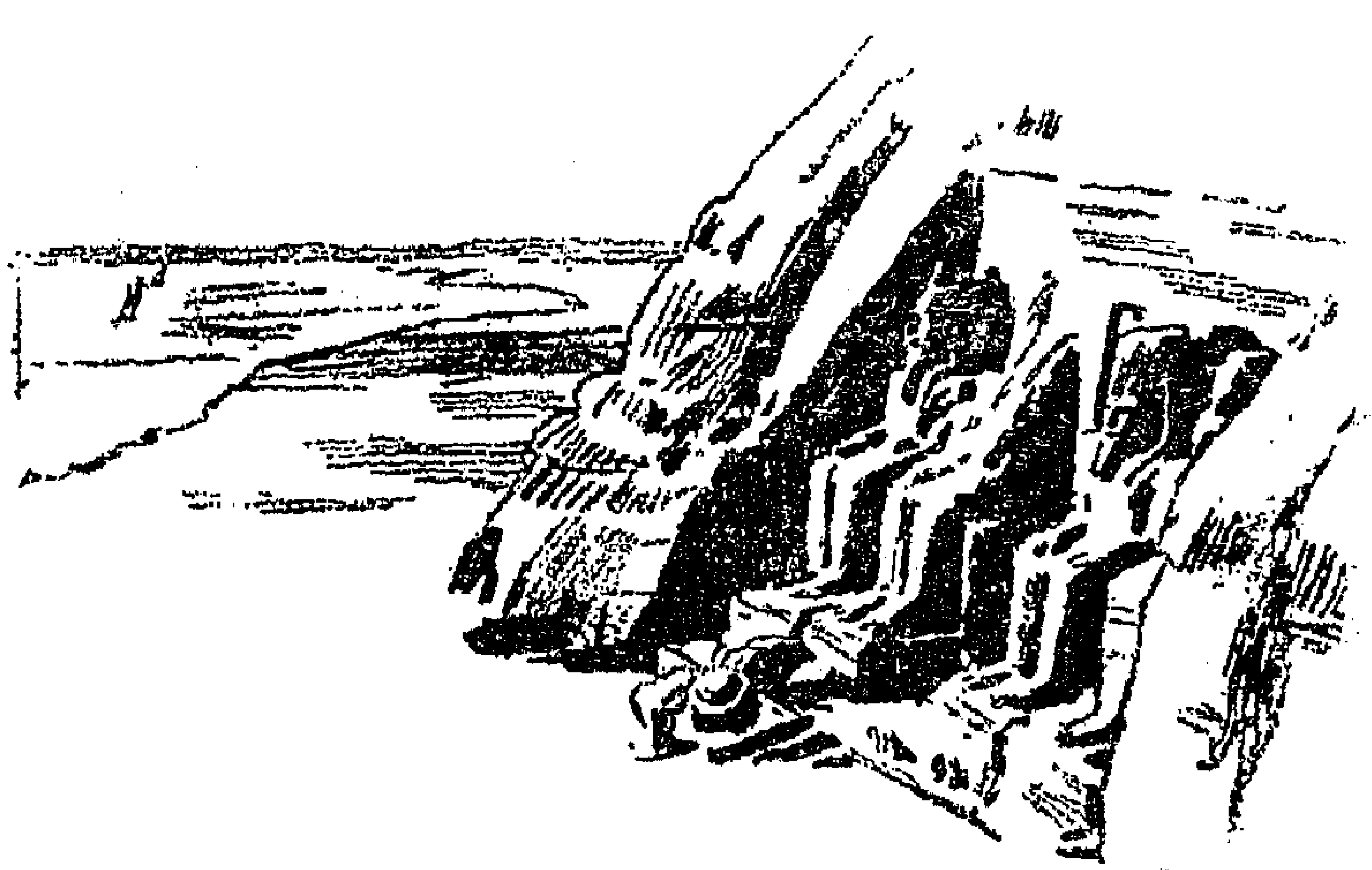
تلك هي التقاليد السارية في البلد الذي جاءت منه ، والتي تعبر بها المراة أو العذراء عن حزنها ، وتقطع على نفسها عهدا ، قبل مواراة الميت في قبره ، بألا تتخذ من بين الرجال زوجا ، ولا ترفع صــــوتها بالغناء ، ولا تشارك رفيقاتها في افراحهن ومسراتهن

ودفنت حانيت نفسها حية في قصر فرعون . وقد شعرت بأنها قد أصبحت ، بعد موته يتيمة للمرة الثالثة !

وقضت بقية حياتها منزوية في حمى تولى ، زوجة فرعون الراحل ، سيتي الاول ، وأم فرعون الجديد ، رمسيس الثاني .

عرائس النيل

تكاتف العالم بأسره لانقاذ معابد أبي سنبل من الغرق في مياه « السد العالي » .



مدخل المعبد فى أبى سنبل

« من أجلك خلقت بلاد خيتا ، لكي تجعلها تابعة لقصرك ، وأوحيت الى اهلها بأن يسعوا اليك من تلقاء انفسهم ، حاملين الى ذاتك الملكية جزية رؤسائهم . وفى طليعة الموكب ابنة ملكهم ، لادخال السرور الى قلب جلالتك . انها تحفة رائعة . جاءت اليك بدون أن تعلم آننى اتخذتها اداة لارضائك » .

هـــذه العبارات ، خاطب بها الاله القدير ابنه وحبيبه رمسيس الثاني فرعون مصر ، فسجلتها أيدى النحـــاتين باللغـــة الهيروغليفية ، على أحد جدران المعابد المحفورة فى جوف الجبل ، على ضفة النيـــل المبارك ، فى المكان المعروف بأبى سنبل ، ببلاد النوبة .

رفع رمسيس الثانى الى الذروة مجـد مصر الخالدة ، فخلد الفنانون ذكراه فى لوحاتهم المنقوشة ، وصورته فى تماثيلهم المنحوتة فى الصخر الاصم ، واحتضنته آلهة مصر ، فكان حبيبها المفضل فى حياته وفى مماته !

وابنة ملك خيتا ــ وخيتا هي بلاد الحيثيين ــ التي جاء ذكرها فى اللوحة الهيروغليفية ، كانت هدية من الالهة الى ربيبها فرعون ، لكي يضمها الى زوجاته .

كان الملك خايتسارو ــ أو خاتوسيل كما يسميه قدماء المصريين ــ أشد أعداء مصر عنادا ، وأبعد خصوم فرعون طموحا ، وأوسع الملوك سلطانا وجاها وقوة ، فى البلدان الممتدة الى شمال مصر وشرقها

جمع حوله شعبه والشعوب المجاورة وتحدى رمسيس فى مطلع ملكه ، فمشى اليه فرعون ، واصطدم الفريقان فى معركة « قادش » ثم فى غيرها من المعارك ، وانتهى الامر بمعاهدة صلح وقع عليها رمسيس وخايتسارو ، فى ســنة ١٢٧٨ قبل الميلاد . فكانت فاتحة عهد ســلام ورخاء فى الشرق ، دام نحو نصف قرن ، انصرف رمسيس فى خلاله الى تحقيق مشروعاته العمرانية فى طول المملكة وعرضها ...

وبعد أن حل الوئام محل الخصــــام بين فرعــون مصر وملك الحيثيين ؛ أراد خايتسارو أن يوجد رابطة رحم مع رمسيس ، فأرسل اليه كبرى بناته ، فى موكب يضم الفرسان والمشاة والعبيد والجوارى ، تتقدمه الفتاة العذراء ، وتتبعه العربات المملوءة بالطنافس والتحف والاسلحة الغالية والاقمشة المزخرفة ، هدية الى فرعون

تقبل رمسيس الهدية ، وانزل العروس ابنة الملك الحليف منزلة خاصة فى قلبه ، وسماها « ماتنيفرورع » ومعنى هذا الاسم « المرأة التى ترى جمال رع ... »

وطلب من شاعرة « بنتاءور » الذى تغنى بانتصارات الجيش

المصرى وفتوحه ، أن يصف جمال الزوجة الحسناء فى قصيدة ينشدها المنشدون على انغام الموسيقى ، فلبى الشاعر أمر مولاه ، وخص « القمر القادم من الشرق ، المطل من فوق الصحارى ومن وراء الجبال ... » بأبيات دونها الخطاطون فى أوراق البردى ...

حكم رمسيس الثانى ميامون — أى حبيب آمون — البلاد المصرية وهو ولى عهد ابيه سيتى الاول ، وتولى العرش فى الثامنة عشرة من العمر ، ومات فى الخامسة والثمانين بعد ملك دام سبعا وستين سنة ! ...

لكنه ترك ايضا للاحقاب الاتية أضخم ارث خلفه ملك فى التاريخ ، ومجموعة من الآثار الباقية على كر الزمن ، يقف مأمامها الانسان مدهوشا مذهولا خاشعا !

* * *

على مقربة من شلالات النيل فى بلاد النوبة ، حفرت الايدى المصرية لفرعون سلسلة من المعابد فى قلب الصخور ، ونحتوا له أربعة تماثيل هائلة الحجم ، تحرس الباب الرئيسى وتدعو الزائرين الى الدخول ...

وفى جوف الجبل ، ممرات وسراديب وقاعات ، تصطف الى جوانبها تماثيل الآلهة ، وتحمل سقوفها الاعمدة المشوقة ، وتحكى لوحاتها تاريخ ذلك العهد انزاهر ، بما تخلله من حروب ومعارك وغزوات وفتوح وانتصارات ، وما امتازت به أدارة الدولة العظيمة من دقة وعدل واحكام . وما تمتعت به البلاد الخاضعة لفرعون من عيش رغد ورخاء وازدهار ...

وخص رمسيس الثانى كل رب من الارباب ، الذكور منها والاناث ، الآلهة والالهات ، بركن من المعابد المتتابعة ، وهياكل لحرق البخور ونحر الذبائح ، وحجرات تأوى الكهنة وخادمات الارباب من النساء ، ومخازن للاوانى المقدسة وأدوات العبادة المشبعة بالعطور ...

وكان فرعون يقوم برحلات منظمة الى تلك المعابد النائية ، فى أطراف مملكته ، وحوله عظماء البلاد ومعاونوه فى حكمها وأدارتها ، وآلاف مؤلفة من رعاياه ، فى جموع تملأ الارض على ضفاف النهر العظيم ، أو تنتقل بالمراكب والزوارق على صفحة الماء ..

* * *

فى يوم من الايام ، تقدمت الملكة مانتيفرورع الى زوجها وسيدها بطلب لم يتردد فرعون فى اجابته ، ارضاء للزوجة المحبوبة ، وتحقيقا للرغبة التى أفضت بها اليه ، فهو لم يرفض لها فى حياتها طلبا ، ولم يصد لها رغبة ...

قالت مانتيفرورع :

– في القصر أيها المولى العزيز القدير ، رسول من لدى أسرتي ، في بلاد الحيثيين حلفائك ورعاياك ، والرسول جاء يعرض على مسامعك ويطلب مني أن أقوم بالوساطة بينك وبينه – يعرض رغبة الاسرة المالكة هناك ، في ايفاد عشرين عذراء من بنات الحيثيين ، الى عاصمة ملكك ، هدية من الشعب الذى انتمى اليه ، الى أسرة الملك الذى خصني بعطفه وغمرني بنعمته ، فهل تقبل الهدية اليوم ، كما فعلت من قبل يوم ارتضيتني أنا هدية اليك من أبى خايتسارو ؟ فالعذارى العشرون راغبات فى أن يشملهن عطفك كما شملني ، وفى أن تصبح كل منهن ملكا لمن تختاره لها من أبنائك او من الشبان الذين يستحقون منك لفتة خاصة ! .. والرسول فى انتظار الرد ، ليحمله الى أسرتى فى البلاد التى جئت منها لتنفذ الاسرة أمر فرعون !

فطبع رمسيس الثانى على جبين الزوجة الطيبة قبلة صامته ، دلت على قبوله ورضاه ...

وما مرت أسابيع حتى كان الموكب فى طريقه الى مصر ، يقطع السهول والجبال والانهار ، كما قطعها موكب آخر ، فى الماضى ليوصل ابنة خايتساورو الى حليفة فرعون .

بنات انتقاهن اهل مانتيفرورع من بين الغيد الحسان فى وطنهن الاول : سمراوات وشقراوات . طويلات وقصيرات ممتلئات الاجسام ونحيفاتها . فيهن من كل نوع من أنواع الجمال ، ومن كل لون من الوان الحسن ، نموذج او اكثر وعلى نحورهن وفى اعناقهن وحول زنودهن كل ما تمكنت أيدى الفنانين الحيثيين أن تصنعه وتتفنن فى صنعه من حلى تختلط فيها الحجارة الكريمة بخيوط الفضة والذهب !

أوصى فرعون زوجته الحيثية بأن تكرم وفادة العذارى من بنات جنسها ، وأن تدعوهن الى رحلات برية ونيلية ، لكى يشاهدن ما فى مصر من غرائب ، ويعرفن كل مايجب أن يعرفنه عن البلاد التى أصبحت وطنا ثانيا لهن ، كما أصبحت من قبل وطنا ثانيا لها هى وأعدت مانيتفرورع العدة لتحقيق ما أوصى به زوجها فرعون ...

وكان أول مافكرت فيه . ان تصحب الحسان الى المعابد القصية فى أعالي النيل عند شلالاته ، وأن تقيم معهن أياما فى داخل تلك المعابد الفريدة فى نوعها ، وتلقنهن العبارات التقليدية المقدسة ، التى ينشدها الكهنة وتترنم بها خادمات الهياكل ، فى صباح كل يوم .

زارت العذارى الحيثيات معابد الآلهة . وأنشدن الاناشيد ، واصغين الى الانغام الساحرة ، وحضرن الحفلات الدينية التى أقيمت من أجلهن فى ذلك المكان المقدس ، ورفعن الى الارباب فى مقرها المجهول آيات الشكر على ما أغدقه فرعون عليهن من صنيع حسن . وجاء الموعد المحدود لعودتهن مع الملكة من حيث أتين ، بعد انقضاء أسبوعين على اقامتهن فى تلك الربوع ...

عهدت مانتيفرورع الى قائد القافلة بأن يخرج بالعذارى فى نزهة

الوداع ، وقالت انها راغبة فى قضاء يومها كله داخل المعبد . فى عزلة عن الناس ، وفى مناجاة الالهة ؛ التى استجابت لها وحققت أمانيهـــا وجعلت منها امرأة موفورة الكرامة والسعادة ...

دخلت مانتيفرورع المعبد . وخرجت الفتيات العشرون فى مركب واحد ، زحف بهن على ظهر النيل ، وارتفعت فى الجو أصواتهن بالغناء والتهليل ، وامتزجت أنغامهن بالضحكات البريئة العالية ، وخيــل اليهن أن الدنيا كلها تضحك فى وجوههن !

وحدث ما لم يكن أحد يحسب له حسابا ، وما لم يعرف أحد فيما بعد له أسبابا !

هل أخطأ البحارة فى قيادة المركب وادارة دفته ؟ هل اصطدم المركب بصخر تخفيه المياه ؟ هل كان فى قاع المركب ثقب لم يفطن اليه المسئولون عن صيانته ؟ هل أدت تحركات العذارى الى اختلال التوازن ووقوع الكارثة ؟ سر ظل مجهولا ولا يزال ...

تبدلت الاغانى والانغام والاناشيد ، فتحولت الى صيحات رعب وفزع ... وانقلب المركب بمن فيه ... وابتلعت المياه أجســـام العذارى !

عبثا حاول البحارة ومن أسرع من الناس الى النجدة ، أن ينقذوا الغريقات البائسات : لم ينشلوا غير جثث فارقتها الحياة !

وهرولت الملكة من داخل المعبد الى حيث الصياح والعويل ، ووقفت مذعورة مرتعشة ، تنظر الى الكارثة المروعة !

عشرون فتـــاة عذراء ، أرادت مانتيفرورع أن تجعلهن عرائس لعشرين من أبناء فرعون أو أبناء من يصطفيهم ، فاذا بالنيل يخطفهن ويجعل منهن عرائس له !

هل غار النهر المقدس من البشر ، فعمد الى ابتلاع العرائس اللواتى جىء بهن من بلاد الحيثيين ، فحملهن من قصر فرعون ضاحكات فرحات ، وأعادهن الى القصر هامدات صامتات ؟ رجعت الملكة مانتيفرورع بالمراكب من حيث أتت بها . ومعها جثث العــذارى تغمــرها الازهار والرياحين !

العرس تحول الى مأتم ... وموكب الفرح تحــول الى جنازة !

وتأثر فرعون مما حدث ، فأمر بأن تدفن العذارى الحيثيات فى مكان واحد ، وأن تندبهن النادبات ، وتنوح عليهن النائحــات ..

وأوفد الى بلاد الحيثيين رسلا يحملون منه التعزية الى أسرة الملكة مانتيفرورع، ومعهم الهدايا والهبات ، عمــلا بالعــادة المتبعة فى الافراح والاتراح على السواء ...

وضاعف عطفه على الملكة المحبوبة ، لكى ينسيها ما انتابها من اضطراب ، وما خفق به قلبها من حزن على بنات قومها اللواتى حرمها النيل اياهن ، وحرم اياهن أيضا عشرين من شبان مصر وفتياتهنا .

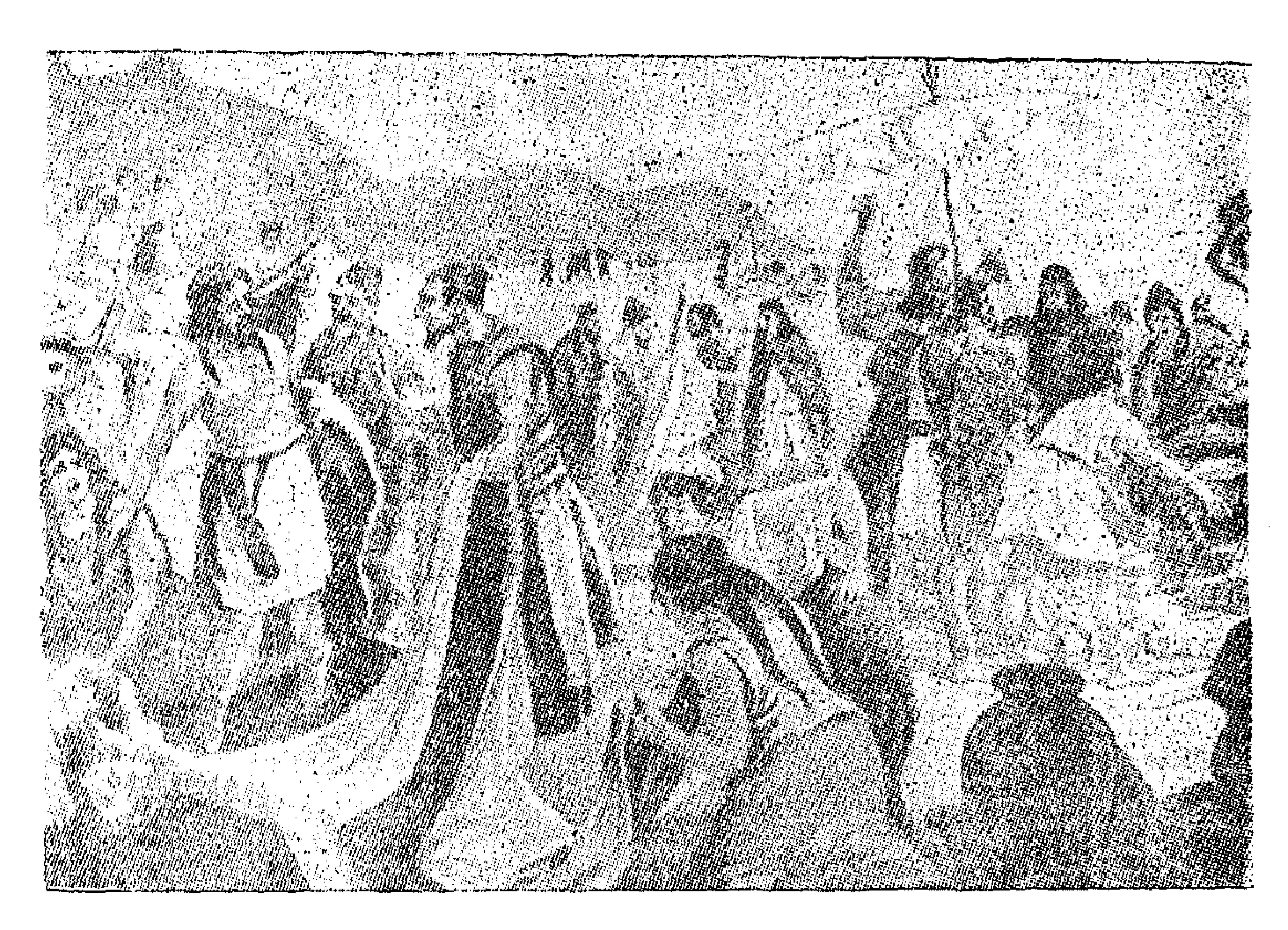
وقال فرعون :

ـ الحيـــاة جميلة أيتها الحبيبة ... والحزن لا يدوم ... والنسيان فى طبيعة الانسان ... وسوف اطلب من أسرتك هناك فى بلاد الحيثيين ، أن توفد الينا بدل العشرين من العذارى ضعف هذا العدد منهن ... لكى تحل القادمات محل الفارقات ، تنسيننا بضحكاتهن ما سببته الكارثة المؤسفة من دموع تساقطت من عينيك الواسعتين !

وجاءت من بلاد الحيثيين عذارى أخريات . رائعـــات الحسن مثل الســـابقات . فأهداهن فرعون رمسيس الى أصـــحاب الحظوة لديه . زوجات حليلات ، وعرائس حللن فى قلوب الازواج محل العرائس اللواتى حرمهم النيل اياهن ، فى غضبة من غضباته ، وثورة من ثوراته !

نحن السابقون

طاف المصريون والفينيقيون حول القارة الافريقية للمرة الاولى فى التاريخ ... ووصلوا الى عالم جديد عرف فيما بعد باسم «أمريكا»



البحارة الفينيقيون فى رحلاتهم البعيدة

اقيمت الزينات فى مدينة منف ، وجعل الناس يجوبون الطرقات والأزقة والميادين ، وبأيديهم المشاعل ، ينشدون ويهزجون ويرقصون ، ابتهاجا بالنصر المبين الذى أحرزه نخاو الثانى ، فرعون مصر ، على دولة اليهود فى أرضها ، فزعزع أركانها ، وهزم جيشها فى معركة ماجدو ، وترك ملكها قتيلا مضرجا بدمه ، وعاد الى عاصمته ، معززا ، مكرما ، على راس جيشه الباسل المظفر ، وكان ذلك فى سنة ٦٠٩ قبل الميلاد.

دامت الافراح والاعياد عشرة أيام بلياليها ، أطلق الشعب المصرى فيها لمرحه العنان ، وجدد فيها العهد لمليكه كما جدد فيها العهد لشعبه ، بأن يعمل الجميع يدا واحدة لخير مصر ، والنهوض بها من كبوتها ، والعودة بها الى سابق عزها ، ومجدها ، وسؤددها .

خلف نخاو الثانى أباه بسامتيك الاول على عرش مصر ، واقسم أن يواصل السير فى الطريق التى شقها أبوه العظيم ، الذى طهر ارض الوطن من الآسيويين الغزاة أعداء الوطن ، ولقد بر بالقسم فكانت نهضة مصر فى عهده رائعة شاملة .

وما عاد حتى جمع كبار رجال الدولة حوله فى قاعة العرش الفسيحة ، فاطلعوه على ماحدث من أمور فى غيبته الطويلة ، وما حققوه من مشروعات عمرانية ، ونفذوه من أوامر أصدرها اليهم قبل نهوضه لمحاربة اليهود وحلفائهم فى أرض فلسطين . فاقرهم على ما فعلوا ، وأفضى اليهم بما يريد منهم أن يفعلوه فوق ما فعلوا فى سبيل مصر وعرشها وشعبها .

وانصرف نخاو برجاله الى الاصلاح الداخلى ، بعد ان تم له تأمين الحدود من الخطر الخارجى .

***

دخل الحاجب على فرعون يقول :

ــ مولاى . ان الضيوف الفينيقيين الذين وصلوا الى منف قادمين من الشرق ، لايزالون مقيمين فى القصر ، وهم يرجون المثول بين يديك .

فاجاب فرعون على الفور :

ــ على بهم ! .. لقد نسيت أولئك الاصدقاء الاوفياء ، الذين لحقوا بي من مدينة صور الى ميادين القتال . فقد شغلتنى عنهم المعارك ، وكنت طلبت اليهم أن يسبقونى الى مصر . فأهلا وسهلا !

وفتح فرعون ذراعيه مرحبا ، عندما ظهر بباب القاعة رجلان وامرأة ، هم الضيوف الذين حدثه عنهم الحاجب :

ــ أهلا بك يا عبد بعل يا أمير البحار ، وبك يا سانكون يا أمهر الملاحين ، وبك أيضا يا ميليت ، ياسيدة قارئات الغيب !

وتقدم الضيوف الثلاثة من نخاو وحيوه تحية بلادهم ، فرفعوا ايديهم فوق رءوسهم ، وأعادوها الى صدورهم ، وقال كبيرهم عبد بعل :

ـ نهنئك بالنصر يا فرعون . لقد سبقناك الى هنا ، ولم نضيع الوقت سدى ، فأعددنا فى غيبتك العدة للقيام بالرحلة التى حدثناك عنها ووافقت عليها .

ـ لا أزال عند وعدى يا عبد بعل ، وسوف تبحرون على سفنكم باذن الآلهة بعد أيام .

ثم التفت نخاو الى المرأة الفينيقية التى سماها « سيدة قارئات الغيب » وقال :

ـ وانت يا ميليت .. اما زلت مصممة على الرحيل معهم فوق الامواج ؟ أم أنت تفضلين الآن البقاء عندنا ، حيث تتبارين مع العرافين المصريين فى تمزيق الحجب عن المستقبل المجهول ؟

فأجابت العرافة الفينيقية بصوت عذب رنان :

ـ أنا ابنة عبد بعل وزوجة سانكون أيها المولى ، فاسمح لى بأن ارافقهما فى رحلتهما الشاقة ، فانهما سيحتاجان الى فى تتبع حركات النجوم وسير الكواكب ، وفى السهر على راحتهما . ان البحر موطن الفينيقى الاصيل ..ومكان الفينيقية الى جوار بعلها ! سأسافر .

ـ اذن على بركة الآلهة أيها الاصدقاء !

***

كان القائد البحرى الفينيقى عبد بعل . وهو من ابناء صور ، قد اقنع فرعون مصر ، نخاو الثانى ، بأن يحشد عمارة من السفن الفينيقية ، ويبعث بها على ظهر البحر فى رحلة طويلة ، لكشف سواحل القارة السوداء كلها، بالطواف حولها ، وعنى بالقارة السوداء افريقية ، وكان البحار الفينيقى يؤكد لعاهل مصر ان تلك القارة ما هى الا جزيرة كبيرة مترامية الشواطىء والاطراف ، وان فى أستطاعة السفن ، اذا ما تسلم قيادها ربان ماهر ، ان تدور حولها وتعود ثانية الى الموانىء المصرية من الجهة المقابلة .

واقتنع فرعون ، فأمر باعداد السفن اللازمة لتلك الرحلة البعيدة المحفوفة بالمخاطر ، وتوكل على الآلهة وعلى اصدقائه الفينيقيين فى القيام بها على أحسن وجه .

وقابل ضيوفه الثلاثة قبل رحيلهم بيوم واحد ، وتمنى لهم النجاح والتوفيق .

وخاطب ميليت العرافة قائلا :

ـ سوف نحرم تكهناتك ياميليت ، فزودينا منها قبل الفراق !

فأجابت العرافة بصوتها العذب الرنان :

ـ سمعا وطاعة أيها المولى ، لا بد من تزويدك منها قبل الفراق ، فمن يدرى ؟ لعله يطلع علينا من أعماق الظلمات ما لم يكن فى الحسبان ، فالغد خفى .

ثم جلست ميليت القرفصاء ، وجعلت رأسها بين يديها واغرقت في الصمت ، حتى خيل للناظرين اليها انها فقدت الحركة والاحساس ، وجعل العرق يتصبب من جبينها ووجهها وعنقها ، وأخيرا رفعت رأسها، وانبعثت من بين شفتيها تضرعات خافتة لآلهة بلادها ، ثم اتجهت الى فرعون وقالت :

ـ أيها المولى ! لقد أمرت رجالك بأن يعيدوا حفر القناة التى سبق لسلفك العظيم سيتي الاول ان حفرها فوصلت ما بين البحرين ، الابيض والاحمر ، مارة بالبحيرات المالحة ، واني ارى ، من وراء حجاب الغيب، ان فى عملك هذا ما قد يجلب الضرر على مصر ، فان حفر هذه القناة ، ووصل البحرين ، سيعود بالفائدة على الغريب دون القريب ، وعلى الاجنبى دون الوطنى . انك اليوم تتقاضى الرسوم على مرور الناس والبضائع فى أرضك ، وتتحكم فى مصير البضائع والناس . أما غدا ، اذا فتحت بين البحرين طريقا يسلكه الجميع فقد تفقد سيطرتك على البضائع والناس ، وقد تجعل للخطر منفذا الى قلب بلادك . فبحق الالهة وبحق الوطن عليك ، مر بوقف العمل ، وكف عن مواصلة الحفر ، فلا كانت قناة ولا كان اتصال !

دهش نخاو لتوارد الخواطر بين العرافة الفينيقية ميليت ، والعرافة القرطاجية كيرا ، وهى ابنة الكاهن زنجارا ، وكانت قد نزلت من قبل فى ضيافته ، وقرأت له فى صفحة الغيب ، وحذرته اعادة فتح الطريق المائية بين البحرين . وها هى ذى عرافة أخرى ، جاءت من فينيقية ، تقرأ فى صفحة الغيب ما قرأته القرطاجية فيها ، فتردد الاخرى على مسامع فرعون ما قالته له الاولى !

فقال نخاو :

ـ جاءنى تحذير سابق يا ميليت ، وعملت بموجبه : فقد امرت بالكف عن مواصلة الحفر . وأنت على حق فيما تقولين : فلا كانت قناة ولا كان اتصال قد يجلب على مصر الأضرار ، ولو احتمالا !

ـ قد يستانف الحفر غيرك فى مستقبل الايام ، ولكن الخسران سيصحب ذلك العمل ، والندامة سترافق صاحبه . وعندها سيذكرك الناس وسيحمدونك !

ـ ولكن حدثيني عن رحلة الغد ، هل سيقدر لها الفوز ؟

ـ نعم ، ستتم الرحلة على خير ما يرجى . غير انى لا أضمن أن يعود الكل منها سالمين . لقد قمنا من قبل أيها المولى برحلات أبعد من هذه ، وأكثر مجازفة . وقضينا فى رحلتنا الاخيرة ستة شهور ، فوق المحيطات الشاسعة ، لا نرى غير السماء ونجومها ليلا ، والمياه الزرق وحيتانها نهارا ، حتى بلغنا فى النهاية شواطىء جزيرة هائلة مجهولة ، تغرب الشمس فيها بعد شروقها عندنا بيوم كامل ، تختلط تربتها بالذهب ، وتغطي أرضها الغابات ، وتجرى فيها أنهار تحاكي النيل هيبة وجلالا . ثم عدنا نحن وبقى هناك منا رفاق ، وبتنا لانتصل بهم

بعد اليوم أبدا . وقد يبدرون فى ذلك العالم الجديد بذور أمة ، وينشئون دولة ، كما فعل مواطنون لهم من قبل فى بقاع أخرى من الارض شرقا وغربا . وسيأتى فى مستقبل الايام من يكشف عن تلك الارض البعيدة من جديد ، فيجد فيها سلالة أولئك الرفاق .. الذين شقوا الطريق الى أقصى الغرب ، فسبقوا اليه ، وسيكون لهم من بعد ذلك أيها المولى لاحقون !

ــ انك تبعثين الأمل والثقة فى نفوسنا يا ميليت !

ــ ان السفن التى تبنيها الآن أيها المولى للطواف حول القارة السوداء ، ستتم الرحلة وترجع اليك سالمة ، وسوف يجىء أيضا فى مستقبل الايام من يعيد الكرة ، ويكشف من جديد فى سفن أفضل من سفننا نحن ، تلك السواحل التى سنحمل اليها تحية فرعون !

ــ اذن فحدثوا الشعوب التى تلقونها فى طريقكم عن مصر ونيلها ، وعن فينيقيا وموانيها ..

ــ سنحدثهم أيها المولى ، وسنغذيهم بنتاج أذهانكم وأذهاننا . سنعلمهم كيف يقرءون ويكتبون ، سنلقنهم الصور الناطقة وحروف الهجاء . سنهذب عقولهم بالآيات التى حفرها كهنة مصر على جدران الهياكل ، وسنخبرهم كيف قهرنا البحار فى سفن صنعناها من خشب الأرز والسنديان ، سندربهم على ترويض الامواج ، وتبديد الظلمات ، والتغلب على الصعاب ، وتبادل السلع والمنتجات ، وعبادة الآلهة واستمطار رحمتها ، وتشييد المعابد والهياكل ، وترتيل الصلوات والاناشيد ، والعزف على الأعواد والنفخ فى المزامير ، حتى اذا ما جاءت شعوب أخرى ، فى مستقبل الايام ، وجدت السبيل أمامها ممهدا ، والطريق مفتوحا ، والزرع مفروسا !

فنهض فرعون على قدميه ، ورفع يديه الى السماء مبتهلا :

ــ لتسدد الآلهة خطواتكم . سيروا بسلام على بركتها ، وفى حراستها !

***

انشأ فرعون نخاو أسطولا من سفن فيها ثلاثة أفواج من الجدافين ، للمرة الاولى فى التاريخ ، وانطلق الاسطول من الموانى المصرية على البحر الاحمر ، وشق طريقه فى البحار والمحيطات ، ودار حول الطرف الجنوبى للقارة الافريقية ، وسار صعدا نحو الشمال ، فاجتاز مضيق «ملكارت» الذى عرف فيما بعد بمضيق « جبل طارق » وعاد الى الساحل المصرى الشمالى ، بعد رحلة استغرقت ثلاثة أعوام ، كان الوفاق فى خلالها تاما بين البحارة المصريين والبحارة الفينيقيين الذين قاموا بذلك العمل الجبار !

لقد تحقق حلم نخاو الثانى فى الطواف حول القارة السوداء ،

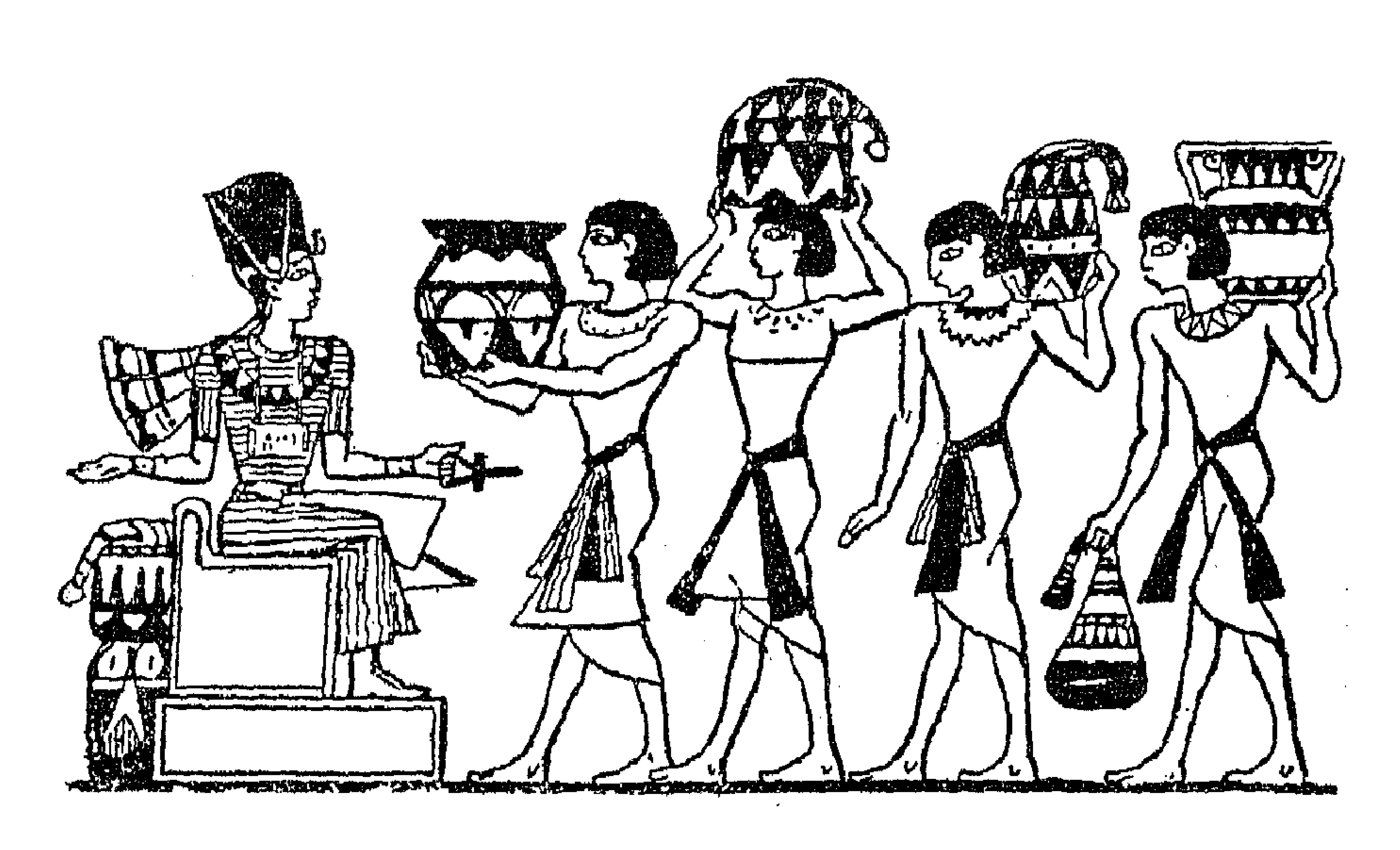
ولكنه لم يستطع أن يهنىء العرافة الفينيقية بنجاح الرحلة ، كما هنأته هى من قبل بانتصاره فى ماجدو ، ذلك لأن ميليت ماتت فى الطـريق ، فألقيت جثتها فى البحر ، مقبرة البحارة من قديم الزمان !

وقال فرعون لعبد بعل وسانكون ورفاقهما ، لما أرادوا العودة الى بلادهم :

ـ أحملوا تحيات مصر وملكها الى مدينتكم وشعبها المقدام . فقد قمنا معا بأعمال عظيمة ، وسوف يتبعنا من يتم عملا بدأناه ، ويسير فى طريق سرنا فيه . فنحن السابقون وهم اللاحقون !

فرعون ويهوذا

قالت العرافة ابنة الكاهن لفرعون :
« ان دولة يهوذا لا يؤمن جانبهـــا
ولا سبيل الى اتقاء شرها الا بازالتها
من الوجود ! »



الهدايا الى فرعون من البلدان التى فتحها والشعوب التى دوخها

قال فرعون «نخاو» للفتاة القرطاجية ، بعد أن أصغى باهتمام الى القصة التى روتها على مسامعه أمام الحاشية الملكيه :

ـ انت هنا فى أمان ياكيرا ... وعناية الآلهة هى التى شاءت أن تدفع العاصفة بالسفينة المصرية الى ذلك الســاحل الافريقى ، حيث تحطمت سفينتك على الصخور ، لكى ينقذك رجالنا من هلاك مؤكد ... والان ، بعد أن عرفت ما حـــدث لك ، بقى على أن أخبرك بأن أباك « زنجارا » ليس غريبا على !.

عم الفتاة السرور لسماعها هذه الكلمات من فرعون ، ووقفت أمامـه حائرة لا تفوه بكلمة ، وقرأ «نخاو» على محيــاها رغبتها فى المزيد من الافصاح ، فاستطرد قائلا :

ـ لا يدهشنك هذا .. فان زنجارا الكاهن الورع ، والعالم المطلع ، قد زار مصر كما تعلمين وأقام فيها بعض الوقت ، فى عهد أبى «بسامتيك» وكنت فى ذلك الوقت صغيرا أكتفى باللعب مع رفاقى أبناء كبار المملكة ولكننى أذكره .. أذكره جيــدا .. ولا انسى كيف أنه رفعنى ذات يوم بيديه القويتين ، وقال لأبى وهو يحدق فى ببصره الحاد : « ابنك هــذا هو الذى سينتقم لك من ملوك يهوذا » ! ولم أفهم معنى هذه العبــارة الا فيما بعد .

وقالت كيرا :

ـ أيها الملك ، لقد علمنى أبى كيف أمزق حجب الغيب ، واقرأ فى صفحة المستقبل كأنها صفحة الحاضر ، وأخاطب النجوم فترد على بلغة أفهمها ولا يفهمها سواى .. وسأضع معارفى هذه كلها فى خدمتك ، كما وضع أبى معارفه فى خدمة أبيك !

وأمر «نخاو» فرعون مصر بأن تخصص للفتاة الغريبة حجرة فى جناح النساء بالقصر الملكى ، وأن تقوم بخدمتها ثلاث وصيفات .

وراح يفكر فى غرائب المصادفات التى تسوق مصير البشر ، وتدفع بعضا الى اتجاه بعض ، وتفرق بينهم أو تجمع ، وتبعد أو تقرب ، كأنها تلعب بهم كما يلعبون هم بالحصى !

وتذكر وصية أبيه : « كن عادلا فى الداخل . واسهر على ســلامة الدولة ، واحذر الغدر من الخارج : ان الكلدانيين وحلفاءهم يطمعون فى خيرات بلادنا ، ومملكة يهوذا تلعب لعبتين بيننا وبين الطامعين فينا . فاحذر القائمين بأمر هذه الدولة ، واياك ان توليهم ثقتك ، فقد غدروا بى اربع مرات ، ولم أثأر لنفسى منهم بعد ! »

تذكر «نخاو» الثانى تلك الوصية التى أفضى بها أبوه قبيل وفاته ، وتذكر تكهن الكاهن القرطاجى زنجارا ، بانه سينتقم لابيه من يهوذا ..

وقال فى نفسه ان وصول كيرا ، بنة زنجارا ، الى مصر ، فى ذلك الوقت بالذات ، لهو فأل حسن بلا شك .

نعم ، ان وصول الفتاة لفأل حسن ، فقد روت للملك أنها كانت عائدة الى وطنها قرطاجة ، بعد طواف طويل فى معابد فينيقية ، ومعها عمها وابنه ، ففاجأت سفينتها فى الطريق عاصفة هوجاء دفعتها الى الشاطىء الافريقى ، فتحطمت على الصخور ، ولولا لطف الاله ووجود سفينة مصرية دفعتها العاصفة أيضا الى ذلك المكان ، ما خرجت الفتاة من هذه المحنة حية .

وطلبت كيرا من البحارة أن يأخذوها الى الملك ففعلوا . وهكذا وجدت الكاهنة ابنة الكاهن نفسها بين يدى فرعون نخاو الثانى ، ابن فرعون بسامتيك ، الذى أكرم وفادة ابيها من قبل ، كما اكرم ابنه وفادتها هى

وكانت دولة يهوذا ، فى الشرق ، وعلى مقربة من حدود مصر ، عاملا من عوامل القلق ، وسببا من أسباب الاضطراب .

تذكر «نخاو» ماقاله له الكاهن زنجارا القرطاجى وهو طفل فى كنف أبيه ، فأراد أن يسمع ما تقوله ابنة الكاهن ، كيرا وهو ملك جالس على عرش ابيه !

***

عاشت الفتاة فى القصر لا فرق بينها وبين اية امرأة من نسائه ، معززة مكرمة ، وكان فرعون نخاو يغترف من مناهل علمها ، ويقارن بين ما يسمعه منها وما يسمعه من كهنة مصر الواسعى الاطلاع .

وجاء اليوم الذى شعرت الفتاة فيه انها استكملت استعدادها الجسدى ورياضتها الروحية ، لتستطاع الغيب وتقرأ فى صفحته ما دون فيهـا لفرعون نخاو .. ولتنحر ذبيحة لآلهة قرطاجة وتفحص أمعاءها وتغتسل بدمائها ، وتقضى فى النهاية الى الملك الذى وثق بها واحلها فى كنفه ، بما ينتظره فى مستقبل الايام وبما يجب عليه أن يفعل فى السنوات الباقية له على الارض .

وقالت كيرا بنت زنجارا القرطاجى : « انك تفكر أيها الملك فى تطهير الطريق المائى الذى كان فى عهد أجدادك يصل البحـر المتوسط بالبحر الاحمر خلال أرض مصر الطاهرة ، والذى غمرته الرمال وأزالت معـالمه ، فاياك أن تفعل ، اياك أن تعيد قناة المياه الى ما كانت عليه ، فان هذا الطريق المائى سيكون شؤما على مصر ، لان الوقت لم يحن بعد لاعادة فتحه !

انك تفكر أيهـا الملك فى رحلة بحـرية طويلة تقـوم بها السـفن المصرية فى الخضمات الشاسعة ، بقيادة أصدقاء لك من بحارة فينيقية ، فافعل ولا تتردد ، فانها لرحلة سوف تخلد اسمك على مر الاجيـال لانك ستفتح بها فتحا جديدا عظيما !

« انك تفكر أيها الملك فى الزحف شرقا للقاء خصومك قبل أن يزحفوا فافعل ولا تتردد ، ولكن أحذر خيـانة ملك يهوذا الذى يعرض عليك صداقته ، انها صداقة منطوية على زغل !

« انك تفكر أيها الملك في وسيلة تضمن بها وقوف يهوذا بجانبك لاتخاذ هذه الدولة كمنطقة أمان بينك وبين أعداء مصر ، فلا تطل التفكير ، أن يهوذا دولة لا يؤمن جانبها ولا سبيل الى أتقاء شرها الا بازالتهـا من الوجود ، فاضربها أيها الملك ، أو حرض عليها من يضربها ، فان الراحة لن تعم بال السكان في هذه الديار، والاطمئنان لن يعود الى النفوس في هذه البقاع ، الا اذا هدم عرش يهوذا ، وعلكت الدولة المزعجة ، وتشتت شعبها في أنحاء الارض .

« أيها الملك ، لا تحالف ملك يهوذا لانه سيخونك ، ولا تحارب معه جنبا الى جنب لانه سيخونك من الخلف ، وسوف تندم ان فعلت ! »

هذا ما قالته الكاهنة القرطاجية ، التى أنقـذها رجال فرعون من الهلاك ، واستضافها فرعون في قصره ، وأحبها وأحبته،ولكن الحب بينهما ظل بريئا ، تتخاطب فيه الروحان .

فقد قالت كيرا لفرعون :

ـ ان أبى قبل موته ، جعل منى خليفته ، ورسمنى كاهنـة للربة تانيت ، والكاهنات في معـابد تانيت لا يتزوجن ولا يستسلمن للحب ، وأنا هنا ، في قصرك ، أحسب نفسى في هيكل من هياكل تانيت ، لانني حولت حجرتى الى معبد انصرف فيه الى الصلاة !

وفطنت نسـاء القصر جميعا الى ذلك الحب الذى نشأ بين فرعون والفتاة الغريبة ، ولكنهن فهمن أيضا حقيقة ذلك الحب ، فاحترمته ولم تكن الملكة نفسها أقل احتراما لتلك العاطفة النبيلة من النساء الاخريات!

أما فرعون ، فقد أكبر موقف الفتاة التى أحبها ، وزاده هذا تمسكا بما تكهنت به يوم نحرت ذبيحتها لتانيت ، الربة القرطاجية ، وقرأت في جوفها ، واستطلعت صفحة الغيب ، وفسرت سير النجوم ، والكواكب ، وقالت لفرعون ما يجب عليه أن يفعل

وعمل فرعون « نخاو » بنصائح الفتاة ، لانه اقتنع بأنها ارادة الالهة نطقت بلسان الكاهنة .

كان يفكر فعلا ، قبل أن يفقد أباه ، وقبل أن يرتقى العرش ، في تنفيذ المشروع الذى قرره بسامتيك في أواخر عهده ، والقاضى برفع الرمال والاتربة من القنوات التى كانت من قبل تربط فروع النيل بعضها ببعض وتمتد خلال الصحراء من شاطىء البحر المتوسط الى بلدة «كتسيما» الجاثمة في طرف الخليج المؤدى الى البحر الاحمر ، والتى عرفت فيما بعد باسم « السويس »

واقتنع الملك ، بعد مشورة الخبراء ، وبعـد المقارنة بين الفوائد والاضرار الناجمة عن تحقيق ذلك المشروع في الظروف الراهنة بأن العدول عنه خير وأوفى ، وأن الافضل لمصر أن تصون الطريق البرى بين البحرين وتتحكم فيه ، من أن تعيد فتح الطريق المائى القديم ...

وبدون تأجيـــل ، قرر فرعون تنفيذ ما كان البحارة الفينيقيون يقترحونه عليه ، وانشاء أسطول يجوب البحار ويطوف حول القـــارة الافريقية ٠٠٠

بينما كان نخاو الثاني يفكر فى ذلك جاءته الاخبار من يوشـــيا ملك يهوذا ، بأن الكلدانيين وحلفاءهم بدءوا الزحف نحـــو مصر ، وانهم يهاجمون الاشوريين حلفاء المصريين ، فلا بد لهؤلاء من نجدة ، والا فالهلاك مصيرهم ٠

ولم يتردد فرعون فى الزحف لنجدة حلفائه ، معتمدا على ملك يهوذا أيضا ، ليلتحق به مع جيشه ٠

وقلب يوشيا لفرعون ظهر المجن ، وبان على حقيقته ؛ فانقلب عليه وحاول أن يطعن الجيش المصرى من الخلف !

لكن نخاو كان أسرع وأبعد دهاء : فقد وثب بجيشه على جيش يهوذا فى سهل « ماجدو » وشتت شمله ، ومزق صفوفه ، وتركه أثرا بعد عين، وقتل الملك يوشيا فى حومة الصراع ، فلقى جزاء خيانته وغدره وكان ذلك فى سنة ٦٠٩ قبل الميلاد ٠

وكانت كيرا صادقة !

وتقول التوراة فى سفر الملوك « ان عبيد يوشيا أركبوه ميتـــا من ماجدو وحملوه الى أورشليم حيث دفنوه فى قبره »

ونادى الشعب بابنه « يواجاز » ملكا خلفا لابيه ، « وصنع الشر فى عينى الرب على حسب جميع ما صنع آباؤه من قبل ! »

ورفض فرعون « نخاو » الاعتراف بالملك الجديد ، فخلعه ، وأخذه أسيرا الى مصر ، وأقام ملكا مكانه أخاه « الياقيم بن يوشيا » وســـماه « يوياقيم »

ومات « بواجاز » بمصر !

ولما أصبح ملك يهوذا من صنائع فرعون ، وربيب نعمته ، ومدينا له بعرشه ، ظن نخاو أن الوفاء سيجعل الملك يوياقيم يحافظ على العهد أكثر من أبيه ٠٠

لكنه كان مخطئا فى ظنه ٠٠ وكانت كيرا القرطاجية هى الصادقة !

فقد استأنف « نخاو » الحرب واعتمد مرة أخرى على ملك يهوذا ، فخان الابن حليفه كما خانه الاب من قبل ، وتفاقم خطـر الاعداء وتكاثر حلفاؤهم ، فتراجع فرعون الى ما وراء حدوده ، وآثر الانتظار على التسرع، واختار الحكمة بدلا من الحماقة ٠

وكررت الكاهنة القرطاجية ما سبق لها أن قالته له : « ان يهـــوذا دولة لا يؤمن جانبها ، ولا سبيل الى اتقاء شرها الا بازالتها من الوجود ٠٠ فاضربها أيها الملك ، أو حرض عليها من يضربها ! »

وقرر فرعون نخاو أن يريح نفسه من أعدائه جميعا ، بأن يحرضهم بعضهم على بعض !

كلهم يريدون به شرا ، ويكيدون له سرا وعلنا ، فليعمل هو لاعادة كيدهم الى نحورهم .

رسم خطة بارعة أدت الى نشوب القتال بين الكلدانيين واليهود ، فانتصر الكلدانيون ، واجتاحوا دولة يهوذا ، وساقوا سكانها أسرى الى ضفاف الفرات .

ومنذ ذلك الوقت ، بدأ تشتيت اليهود فى أنحاء العالم .

أما « نخاو » فقد اعتصم فى بلاده بعد أن ضاعف تحصينها وأتقن الحراسة كلها ، وأقام المخافر والقلاع ، وأفرغ همه فى تقوية الجيش وتسليحه وتدريبه ، لدرء الخطر به اذا وقع الخطر ، أو لضمان الفوز اذا ما اضطرت مصر الى الزحف خارج حدودها ...

وعرفت مصر فى عهد « نخاو » العزة والمنعة والرخاء والاطمئنان .

وذاق فرعون لذة النصر ، وعرف كيف يتلافى عواقب الاخطاء التى وقع فيها ، وكيف يبتعد عن الخطر اذا كان شاعرا بأنه ليس فى وسعه التغلب عليه .

وكان سعيدا فى حياته الخاصة ، سعيدا فى زواجه ، سعيدا بذريته! وظل وفيا لكيرا الكاهنة العاشقة .

أما كيرا فقد رحلت عن مصر بعد أن تحققت المرحلة الاخيرة من مراحل تكهناتها ، واقتص فرعون من ملوك يهوذا ، يوشيا وبواجاز ، ويوياقيم : الاول بأن قتله ، والثانى بأن خلعه فمات من الحزن ، والثالث بأن ألقاه فى فم الأسد الكلدانى فافترسه الاسد !

أما كيف رحلت ، فقد أراد ذات يوم أن يحملها على الخروج عن عنادها ، والعدول عن تحفظها ، والاستجابة لنداء الحب :

ـ أما زلت متمسكة برأيك يا كيرا ؟

وجه فرعون اليها هذا السؤال ، فاذا بها تجهش بالبكاء ؛ وتهرع هاربة من الحجرة !

وكانت هذه أول مرة تخون كيرا فيها نفسها ، وتعجز عن حبس دموعها .

وفى اليوم التالى ، جاءته هادئة ، جميلة ، ملتفة بخمار أرجوانى ـ اللون الفينيقى القرطاجى ـ وجلست بجانبه ؛ وقالت بصوت متهدج ينم عما يتلاطم فى صدرها من مشاعر فائرة :

ـ حبيبى ! حبيبى ! ان بقيت هنا فى قصرك ، فى بلدك ، فى مملكتك ، فاننى لن أقوى على الصبر ، ولن أحافظ على طهارتى..وطهارتى

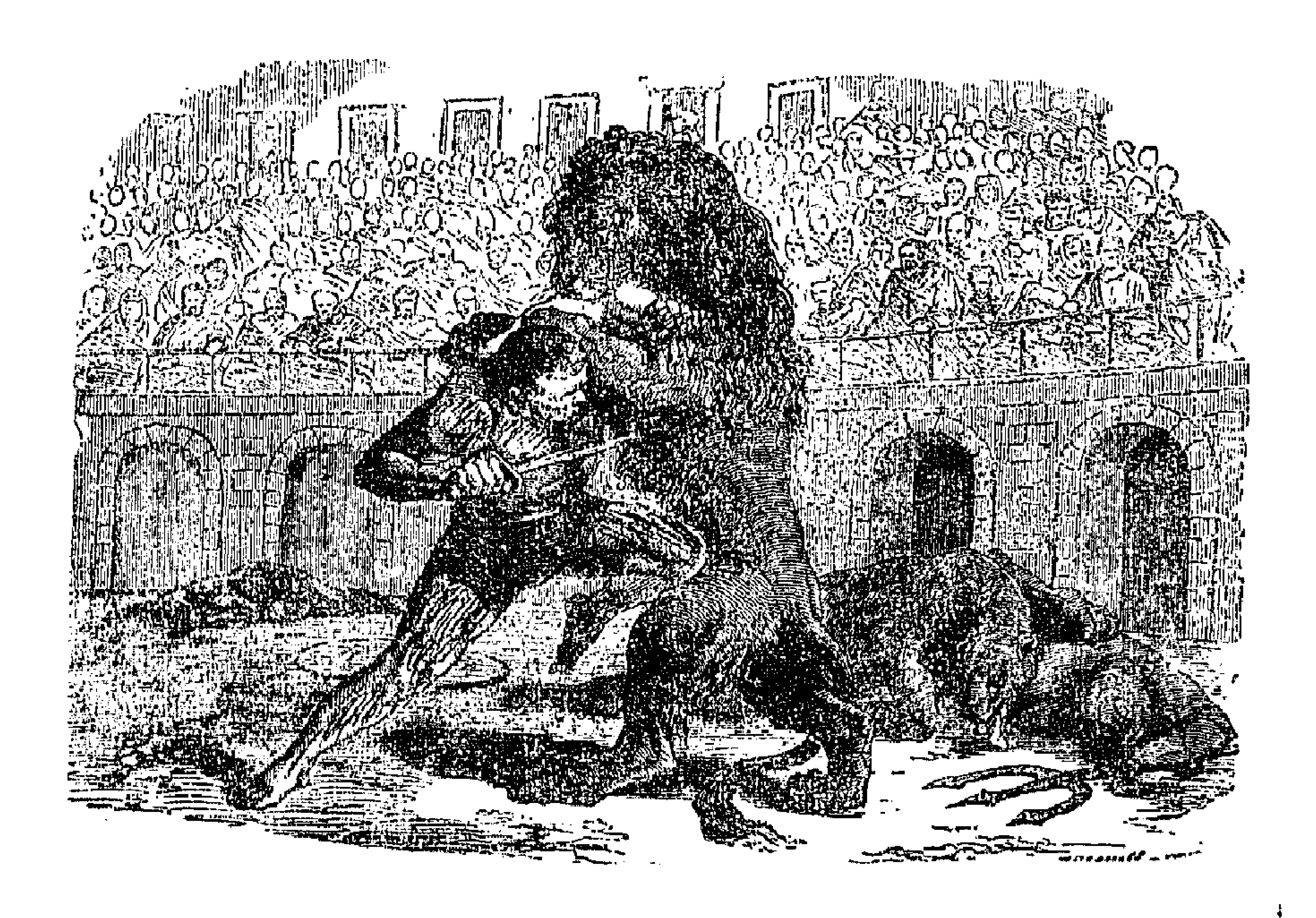
أمر لازم ، وشرط لا بد منه؛لمن وقفت حياتها مثلى ؛ لخدمة الربة تانيت؛

حبيبى ... أحبك ... ولأننى أحبــك ، ولانك تحبنى ، يجب أن نفترق ، لم أفعل فى مصر ما يمكن أن يكون موضع نقد أو مؤاخذة ... وسأترك عندكم فى هذا البلد المحبوب ، ذكرى طيبة معطرة !

وأخذ فرعون رأس الفتاة النبيلة الطاهرة بين يديه،وطبع على جبينها قبلة طاهرة !

قاهر الوحوش

كان عبدا رقيقا ، وكان أيضا جبارا عنيدا
فانتزع حريته انتزاعا من مخالب الأســـد



مصارعة الوحوش

شهدت مدينة الاسكندرية في صيف سنة ٢٧٥ قبل الميلاد ، مهرجانا فخما دام عشرين يوما • وأمر « بطليموس الثانى » بأن توزع النقود والمؤن على الفقراء بلا حساب ، وأن تبسط الموائد في الشوارع والميادين كي يأكل الناس ويشربوا على أنغام الموسيقى ، فقد أقيم ذلك المهرجان احتفالا بزواج بطليموس للمرة الثانية ، اذ كان قد غضب على زوجته الاولى - وكانت غريبة عن أسرته - فطلقها وأرسلها الى المنفى ، ثم تزوج أخته التي عرفت في التاريخ باسم «ارسينوى الثانية» وكان زواج الاخ بأخته من العادات المألوفة عند البطالسه وغيرهم في ذلك العهد •

أما بطليموس الثانى فقد عرف باسم « ميلادلف » أي المحب لاخوته لا لأنه كان في الواقع يحبهم ، بل لأنه كان يكرههم كره الموت ، ولانه قتل منهم اثنين عند ما اعتلى عرش مصر !

وأرادت الملكة الجديدة أن تزيل من القصر كل أثر للزوجة السابقة، فأبعدت عنه جميع الخدم والعبيد والجوارى والوصيفات ، وجاءت بأشخاص تثق بهم وتطمئن اليهم ، حتى لقد طلب اليها زوجها ان تبقى في خدمتها واحدة فقط من وصيفات زوجته الاولى فرفضت ، فأرسل بطليموس يستدعى تلك الفتاة لينظر في أمرها ، اذ كان يعطف عليها عطفا خاصا ، لان أباها أنقذه مرة من الغرق وراح ضحية شهامته ووفائه •••

كان اسمها «عمرة» . هى ابنة رجل عربى من قحطان ، جاء به بطليموس من البلاد التى شرق نهر الاردن ، حيث كان يشتغل بتجارة الخيول بين تلك البلاد وصحراء العرب ، وعهد اليه بالاشراف على خيول القصر والحرس ، وترتيبها وترويضها ، الى أن مات تاركا ابنته الوحيدة أمانة في عنق الملك ، وكانت «عمرة» في عنفوان الشباب ، بارعة الحسن ، سمراء اللون ، سوداء الشعر والعينين ، فتولى بطليموس أمرها ، وجعلها من وصيفات زوجته الاولى ، فكانت مثال الولاء والاخلاص •••

اطلعها بطليموس على قرار زوجته الثانية بابعادها عن القصر، وقال: انه سيبعث بها وديعة الى أية أسرة تختارها من أسر القواد والحكام ، فبكت عمرة وطلبت اليه أن يعيدها الى البلاد التى جاءت منها،لكي تبحث عن أهلها وذويها ، وتقضى حياتها بين ظهرانيهم حرة من كل ضغط وقيد

وأجابها الملك الى رغبتها •••

***

كانت عاصمة البلاد التى عبر الاردن تدعى « ربة عمون » منذ اقامة العمونيين فيها وانشاء دولتهم في تلك البقاع الوعرة • وقد خربها الملك داود ، واجتاحها الاشوريون ، وذكت معالمها للمرة الثالثة في الحروب التى

تشبت بين خلفاء الاســـكندر المقدوني بعد وفاته ٠ وعندما قسم قواد الفاتح العظيم ملكه الشاسع ، آلت بلاد الاردن الشرقية الى البطالســة الذين تبوءوا عرش مصر ، واتخذوا الاسكندرية عاصمة لملكهم ، وهكـذا جلست على عرش مصر اسرة غريبة اخرى ، حكمت البلاد بضـع مئات من السنين . وقد جعل بطليموس الثاني من الاسكندرية عروس حواضر الشرق ، تزهو بميادينها وشوارعها ، وبالمنـارة القـائمة على صخرة « فاروس » عند مدخل الميناء ، تلك المنارة التي عدت فيما بعد احـدى عجائب الدنيا السبع

وجه بطليموس الثاني عناية خاصة الى «ربة عمون» فاعاد بنـاء أسوارهاوقصورها على قمة الجبل،ومعابدها وهياكلها في الوديان،والملعب الفسيح المنحوت في سفح تل صخرى ؛ ثم أطلق عليها اسمه ، فعرفت منذ ذلك الوقت باسم « فيلادلفيا »

وفي اثناء زيارته للمدينة الجديدة اهدى اليه «سيور» أبو عمرة فرسين عربيين أصيلين ، فقبلهما بطليموس ؛ واصطحب معه الرجل وابنته الى الاسكندرية فاقاما فيها الى ان كان ما كان ٠٠٠

وعندما طلبت «عمرة» ان تعود الى شرق الأردن لتلحق من هنـاك ببني قومها وتستعيد حريتها ، كان الملك يعد العدة لايفاد بعثة من عظماء الدولة فيموكب كبير الىفيلادلفيا ، لاحياء الحفلات فيها أسوة بعواصم بقية الاقاليم الخاضعة له ، بمناسبة زواجه ٠ فالتحقت عمرة بالمـوكب مزودة بالمال والهدايا

❋ ❋ ❋

هبط سكان فيلادلفيا من أعالي الجبل الى قاع الوادي حيث أعـدت العدة لاقامة المهرجان في الملعب الفسيح ٠ فأخذ الحكام والقضاة والكهنة اماكنهم فيالشرفة الاولى ، واعتلى الشعبالمدارج فملأها على سعتها ، وانتشر الذين لم يجدوا لهم مكانا في الملعب على المشارف المجاورة ، وهي ستة تلال تحيط بالمدينة وتنساب بينها مياه الغدير العذبة ، مغردة على حصى الوديان ، ساقية أنواعا عدة من الاشجار والرياحين ٠٠ وجلست عمرة مع الجالسين في الشرفة الاولى مع رسل بطليموس ورجاله القادمين من مصر ، يتصدرهم رئيس تلك البعثة « فيليب القبرسى » القائد المحنك الذي تولى اخضاع القبائل في التخوم الشرقية .

وكان برنامج الحفلة رائعا ٠٠ فقد تتابعت في حلبة الملعب جماعات منالموسيقيين والمغنين والشعراء والمنشدين، كلمنهم يعزف على آلة او يترنم بأغنية ، أو يتلو قصيدا أو يرتل نشيدا ، وتشابك الراقصـــون والراقصات في حركات فنية بديعة على أنغام القيثار والمزمار ، وتبارز أربابالسيوف والرماح فقتل منهم من قتل وجرح منجرح ، وتصارع المتصارعون ففاز منهم من فاز ، ونقل المغلوبون الى الخارج وقد تفككت مفاصلهم وسحقت عظامهم، وعرضالمروضون كلابهم وقرودهم وحميرهم، وجاء رجل فينيقي بدب اسمر يلعب بالسيف والترس ، وتبارى الفرسان

العرب على متون جيادهم الاصيلة التى حملتهم من بطن الصـــحراء للاشتراك فى ذلك المهرجان .

وكانت خاتمة هذه المشاهد منازلة رجل افريقى لاسد هـائج ٠ فقد وقع ذلك الرجل في الاسر وهو على رأس عصابة من اللصوص عاثت فى صحراء مصر فسادا فحكم عليه بالاعدام . ولكن الرجل اقترح أن يوضع وجها لوجه مع الوحوش الكاسرة ، فاما ان تفترسه وينتهى الامر، واما أن يتغلب عليها فيظل على قيد الحياة حرا طليقا . وانقضت ثلاثة أعوام على اقامته فىالاسكندرية ، تغلب فيها على أربعة اسود ونمر وضـبع وخمسة ذئاب ٠ وأراد بطليموس أن يساهم قاتلالوحوش هذا فىمهرجان فيلادلفيا فأرسله اليها مع بعثته ، ليصارع أسدا هائجا فيقتله أو يلقى فى المصارعة حتفه !!

نزل الرجل الى حلبه الملعب عارى الجسم لا يستر عورته غير خرقة حمراء وفى يمينه خنجر صغير ، وقد لف ذراعه اليسرى بقطعة من الجلد المتين واطلق الاسد من قفصه الحديدى ، فاندفع فى الحلبة ثائرا مزمجرا ، وعلت أصـــوات المشاهدين داعيـــة الزنجى الافريقى الى الحذر ورباطة الجأش ، وضاعفت الاصوات غضب ملك الغابات فارتفع زئيره المخيف وبعث الرعب فى النفوس ، ورأى الزنجى يقترب منه مقلدا زئيره ،فضرب الارض بذيله ، ونفض ذؤابته ، ووثب نحو فريسته مكشرا عن أنيابه ٠٠

ولكن الرجل تلقى الصدمة بذراعه اليسرى ، وجعل يلاعب الاسد كما يلاعب القط الفأر ، فكان المشهد هائلا لم تقع أعين سكان فيلادلفيامن قبل على مثله ٠ وما هى الا دقائق معدودة ، حتى تمكن الرجل من تسديد طعنة من خنجره الى عنق الاسد ، فسال على الارض دمه ، وبلغ هياجــه مبلغا عظيما، فدار حولالحلبة قفزا وعدوا، حتى اذا ماوصلأمام الشرفة الاولى حيث مندوب الملك وحاشيته تحفز فجأة ووثب وثبة زادها الألم قوة واندفاعا ، فبلغ حافة الشرفة وانشب مخالبه فى صدر « عمرة »ولكنه لم يتمكن من التعلق بها فسقط على ظهره ، وكان الزنجى قد أسرع اليه رافعا خنجره فأغمده فى عنقه مرة ثانية فثالثة ، فلهث وتدفق الدم من فمه علىحين وضعالزنجى قدمه على رأسه حتىأصبح جثة لاحراك فيها، وظل الزنجى على حسب الوعد حرا طليقا !

ولكن الذعر كان قد استولى على النـــاس فعلا الهرج والمرج ، ولم يصفق للفائز غير فريق من المشاهدين فى حين كان الباقون يسرعون نحو الابواب طلبا للنجاة ، ظنا منهم ان الاسد قد تسلق المدارج ٠٠ وأحـاط رفاق « عمرة » بالفتاة الجريح يحاولون مبادرتها بالاسعاف ، ووقف نزيف الدم من صدرها الذى مزقته مخالب الاسد !!

لكنمحاولتهم ذهبت سدى، فقد أسلمتالمسكينة الروح فى زفرة تقطع الكبد ٠وماتت فى اللحظة التى كان العملاق الافريقى يضرب فيهـا ضربته القاضية ٠ فخرج الناس من الملعب واجمين ، وانتهى المهرجـان بمأتم مشى فيه فيليب القبرصى ، ووراءه الكهنة وخادمات الهياكل وسكان فيلادلفيا حاملين المباخر والازهار ، فأودعوا « عمرة بنت سيور »العربية مرقدها الاخير ، فى ظل عريشة وارفة على ضفاف الغدير ٠

... مات الاسد ، ولكن بعد أن انتزع من الفتاة زوجها ، وبعد ان انتزع العبد الافريقى حريته من بين مخالبه !

ولكنها حرية لم ينعم بها المنتصر !

فقد مشى العملاق الأفريقى فى جنازة الفتاة العربية • وبكى على قبرها مع الباكين • ولكنه لم يعد مع المشيعين بعد أن واروا فقيـــدتهم بالتراب •

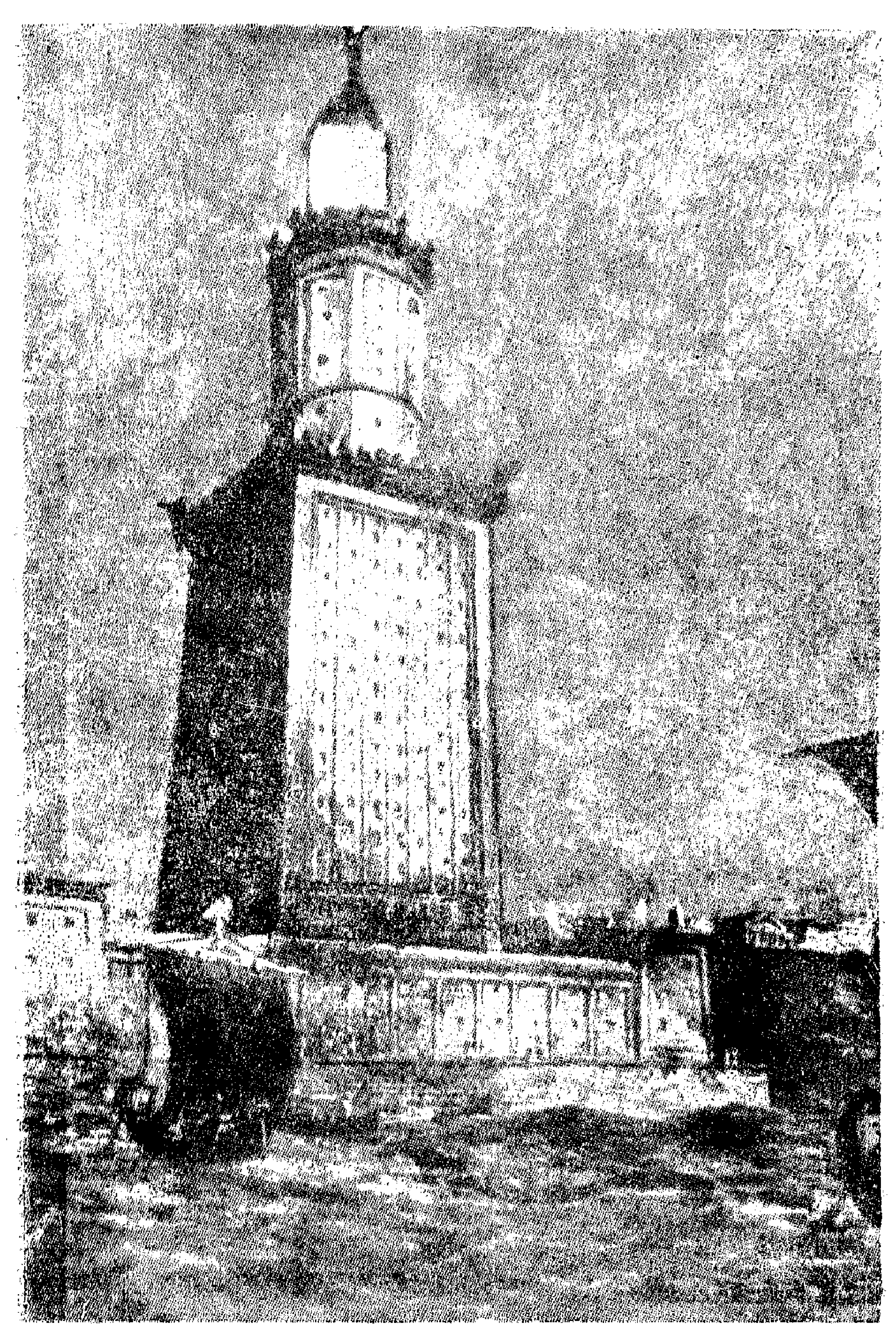
ففى صباح اليوم التالى – وجد العملاق ميتا على قبر عمرة – وفى صدرة النصل الذى قتل به الاسد فى مهرجان فيلادلفيا •

لم تقتله الوحوش الكاسرة . وقتله منظر الفتـــاة الميتة . فانتحر اعتقادا منه أنه كان سبب موتها •

وفى السنة التالية • زار بطليموس الثانى المدينة التى تحمل اسمه• ووقف خاشعا على قبر ربيبته العربية التى رحلت عن مصر للقاء ذويها ، فلقيت حتفها •

جواهر بطليموس

صندوق فى مياه الاسكندرية ينتظر فى قاعها
صاحب الحظ الذى قد يعثر عليه . ويستولى
على الكنز الذى فيه !



منارة الاسكندرية
احدى عجائب الدنيا السبع شيدها البطالسة

كتب بطليموس الثالث ، ملك مصر الاغريقى ، الى صديقه كليومينس ملك اسبارطة يقول :

« ردا على خطابك الذى تطلب الى فيه أن أنجدك بالمال والرجال ، أخبرك بأننى أجيبك الى رغبتك وألبى نداءك · ولكننى أشترط عليك أن ترسل الى من ناحيتك رهائن احتفظ بها مادام جنودى بعيدين عن وطنهم · ولا اخالك عارضا فى أن تكون الرهائن أمك ووزجتك وأولادك . فابعث بهم الى ، وفى اليوم الذى يصلون فيه الى الاسكندرية يبحر جنوده الى بلاد الاغريق للانضمام الى جيشك ومحاربة أعدائك · وثق أننى دائما صديقك المخلص الأمين · »

* * *

واضطر كليومينس الى النزول على رغبته وقبول شروطه ، لان الضرورة كانت ترغمه على ذلك

وبعد اسابيع ، وصلت الرهائن الى الاسكندرية ، وغادرها جيش بطليموس فى اليوم التالى الى بلاد الاغريق

* * *

كان الاسبارطيون يعانون مشقات هائلة فى الدفاع عن وطنهم بالرغم من أنهم كانوا رجال حرب وكفاح

وحاول كليومينس ، عندما وصلت اليه النجدة المرسلة من مصر ، أن يستعيد المدن التى فقدها ، فكر على أعدائه مرة بعد مرة · ولكن المقدونيين تغلبوا عليه وهزموه فى معركة سيلازيا سنة ٢٢٢ قبل الميلاد ، فاضطر الى الخروج من وطنه هائما على وجهه ، وطلب النجاة فى ديار غير دياره ·

فابحر الى الاسكندرية ، عاصمة البطالسة فى ذلك الوقت ، ونزل مع حاشيته ضيفا على صديقه وحليفه بطليموس الثالث

ورحب به ملك مصر · وأعاد اليه أمه وزوجته وأولاده وأنزلهم فى دار على شاطىء البحر ، وعلى مقربة من القصر الملكى

وكان بطليموس الثالث ملكا عادلا محبوبا من شعبه ، الذى أطلق عليه اسم « المحسن » لأنه كان يعطف على الفقراء والمعوزين ، ويساعد اليتامى والمساكين ، ويرغب فى أن يعيش الناس جميعا فى بحبوحة من الهناءة والسعادة ·

وبطليموس الثالث هو الذى فتح سورية وآسيا الغربية وأعاد من بلاد فارس الى مصر تماثيل الآلهة وأسلاب المعارك التى كان دارا وقمبيز قد أخذاها من وادى النيل عندما اجتاحته جيوشه ·

ولكن الاقدار أبت الا تظل عابسة في وجـــه كليومينس الطريد . فان صديقه بطليموس الثالث مات بعد وصول الملك الاسبارطى الى مصر بشهور معدودة ، وارتقى العرش بعده ابنه بطليموس الرابع ، وكان يكره كليومينس ويوجس خيفة منه

عرف بطليموس الرابع فى التاريخ باسم « فيلوباتور » أى « المحب لابيه » . وقد أطلق عليه الناس هذا الاسم لا لأنه كان يحب أباه ، بل لأنه كان بعكس ذلك يضمر له الشر ويرقب موته . وقد قيل : انه دس له السم فى الطعام لكى يخلفه على العرش !

وكان أول عمل أقدم عليه الملك الجديد على أثر تبوئه عرش مصر ، أن أمر باعتقال كليومينس وأسرته وحاشيته وزجهم جميعا فى السجن ، بحجة ان ملك اسبارطة السابق يعلل النفس بانتزاع السلطة من البطالسة وبسط سلطانه على مصر

***

كان بين رجال كليومينس الذين فروا معه من اسبارطة الى مصر رجل شجاع يقال له « بانتيوس » . وهو من المقربين الى الملك المهـزوم ومن أنصاره المخلصين ، بل اشد أنصاره اخلاصا له ورغبة فى استرجاع عرش اسبارطة وطرد المقدونيين من بلاده

وفى الفترة التى انقضت بين وصــول الملك وحاشيته الى مصر ، والقبض عليهم وزجهم فى السجن ، عرف بانتيوس الاسبارطى فتاة من وصيفات القصر تدعى ديمتريا . وهى اغريقية ارسلتها برنيس أخت بطليموس الثالث الى أخيها وأوصته بها خيرا لانها يتيمة الابوين ولان أمها كانت خادمة مخلصة لبرنيس زوجة انطيوخوس الثالث ملك سورية

أحب بانتيوس الفتاة وبادلته الحب . واقسم كل منهمـــا يمين الاخلاص للآخر ، وتعاهدا على الزواج عندما تعود المياه الى مجاريها ويرجع الملك كليومينس الى اسبارطة .

ولكن أمانى الحبيبين وآمالهما أصيبت بضربة قاسية عندما انتقـل بطليموس الثالث الى العالم الآخر وخلفه ابنه بطليمــوس الرابع على العرش ، فقلب ظهر المجن للاسبارطيين وألقاهم فى أعماق السجون .

وباتت الفتاة ديمتريا ترقب الفرص للاتصال بحبيبها وقد ألحقـه الملك برفاقه ، ولكنها لم تجد الى ذلك سبيلا . فاستولى عليها الحزن وجعلت تدب سوء حظها وتطلب من الآلهة ان تنقذ الملك الســـجين وحبيبها من قبضة ذلك الظالم الذى غدر بهما

غير أن بعض أعوان الملك من اغريق الاسكندرية كانوا يعملون خفية لاخراجه من السجن . وشاءت الظروف ان تتصل ديمتريا باحدهــــم فالتحقت بالمتآمرين وساعدتهم على قدر طاقتها . ونجحت المؤامرة فخرج كليومينس ذات يوم من السجن فجأة بعد أن اغرى الحراس واشتراهـم بالمال . وتبعه رجاله وقد امتشق كل منهم حسامه واندفع الجميع فى شوارع الاسكندرية داعين الناس الى العصيان والثورة

وأمام باب السجن وجد بانتيوس حبيبته الوفية في انتظاره، فتعانق الحبيبان وهمست ديمتريا في أذن الاسبارطي هذه الكلمات :

ـ بانتيوس . لقد ضمنت لكم الفوز بالمال بعد أن تستولوا أنتم اليوم على معاقل الجنود . فقد أخذت من قصر الملك من الجواهر والحلي ما يكفي شراء شعب بأسره ، واقامة دولة جديدة على انقاض دولة بائدة !

فطبع بانتيوس على جبين حبيبته قبلة حارة ، وانطلق وانطلقت هي معه وراء الملك كليومينس في طلب الثأر !

***

ولكن الآلهة كانت تخارب الملك الطريد في أمانيه ، وتعاكسه في جميع اعماله ، فقد أبى سكان الاسكندرية ، وهم التجار الحريصون على أموالهم ومصالحهم ، أن ينضموا الى ذلك الغريب الثائر ، فتغلب رجال بطليموس على الاسبارطيين وقبضوا عليهم جميعا بعد ان سقط منهم من سقط في القتال وأعيدوا الواحد بعد الآخر الى السجن

وادركوا انهم هالكون لا محالة ...

وكانت الفتاة ديمتريا بين الأسرى لانها ابت الا أن تظل مرافقة لحبيبها . فحاربت معه جنبا الى جنب وآثرت دخول السجن مع من تحب على التمتع بالحرية بعيدة عنه

وعندما اغلقت وراء الاسرى أبواب السجن وقف الملك كليومينس في قومه خطيبا وقال :

ـ أيها الرفاق . لقد شاءت الآلهة ان تلازمنا الهزيمة الى النهاية ، وأن يقضي على أعز أمانينا فلا أرى الآن فائدة من البقاء على قيد الحياة ، بل أرى ان الموت خير لنا وأوفى ، فان الملك بطليموس الرابع سوف ينكل بنا وينتقم منا ويلقي بنا الى السباع تفترسنا ، او الى الفيلة تدوسنا بقوائمها ، أو يأمر زبانيته بذبحنا ذبح الانعام في هذا السجن المظلم ، ان لم يكن قد فكر من الآن في شد وثاقنا والقائنا في البحر من أعلى أبراج قصره . ولذا فأنا أدعوكم جميعا أيها الرفاق الى أن تقطعوا حبل حياتكم بايديكم وأبدأ بنفسي فأغمد هذا الخنجر في صدري !

فنهض بانتيوس وقال :

ـ أيها الملك المحبوب . لا أظن أحدا من رفاقنا يتردد لحظة واحدة في النزول على ارادتك والعمل باشارتك ، فكلنا نرحب بفكرتك . وخير لنا ألف مرة أن نموت منتحرين من أن يمثل بنا جنود بطليموس فنموت كاللصوص أو الجبناء ، غير ان لي أمنية واحدة ارجو منك ان تصغي اليها

ـ ان امنيتك يابانتيوس لمقضية قبل ان تفضي بها الي . فأنت أوفى الاوفياء واخلص المخلصين . تكلم !

فطلب بانتيوس من كليومينس الا يسمح للفتاة ديمتريا بأن تقدم على الانتحار لأنها ليست اسبارطية ، ولأن الاقدار دفعت بها الى الاشتراك في تلك الحركة الثورية دون أن يحتم عليها الواجب الاشتراك فيها ...

ولكن الفتاة نهضت من مكانها وصاحت :

ـ بانتيوس ! ماكنت اظنك أيها الحبيب تقدم على أمر من شأنه ان يلحق العار بمن تحب . لقد حاربت معكم وربطت حظى بحظكم وحياتى بحياتكم ، فسأموت اذن عند ماتموتون او ابقى على قيد الحياة اذا بقيتم أحياء . غير أننى أرغب فى أن أفضى الى الملك كليومينس بسر لم أبح به الا لك وحدك أيها الحبيب ، فاعلم أيها الملك الكريم اننى حملت معى عندما غادرت قصر الملك للالتحاق بكم ، صندوقا صغيرا يحوى ثروة كبيرة ،ذلك الصندوق هو الذى كان الملك بطليموس الرابع يحفظ فيه جواهر التاج والحجارة الكريمة واللآلىء النادرة التى يعتز بها البطالسة . وبين تلك الجواهر جوهرة جاء بها بطليموس الثالث « المحسن » من الشرق وكان دارا ملك الفرس يحلى بها تاجه . وقد القيت ذلك الصندوق فى مكان من البحر لايعرفه سواى ، على أمل أن يكلل النجاح ثورتكم فننتشل الصندوق من جوف اليم ونغترف من الجواهر ما يلزمنا لاقامة عرش جديد على أنقاض عرش البطالسة ، واعادة عرش اسبارطة اليك أيها الملك . أما الآن وقد قضى على آمالنا وقررت أنت وقررنا نحن أن نموت جميعا ، فان الكنز سيظل فى مكانه ولن يعلم احد اين دفنت جواهر بطليموس الرابع ملك مصر !

***

نفذ القوم عزمهم فانتحروا جميعا

وكان كل واحد منهم يغمد خنجره فى صدره دون أن تنبعث من ذلك الصدر صرخة ألم أو حسرة أو حشرجة

وكان البادىء بالانتحار الملك كليومينس نفسه وتبعه الآخرون

وبقى بانتيوس واقفا فى مكانه ينظر الى رفاقه يتساقطون حوله كسنابل القمح

وكانت ديمتريا واقفة بجانبه ترمقه بنظراتها وخفقان قلبها يشتد لحظة بعد لحظة

وعند ما سقط الجميع على الارض تناول بانتيوس خنجره من غمده ورفع يديه الى السماء وقال :

ـ أيتها الآلهة ، يا آلهة اسبارطة ، اشهدى أننى لم أتردد قط فى اللحاق برفاقى ، ولكننى أردت أن أثق من موتهم جميعا مخافة أن يبقى فى احد منهم رمق من الحياة فيعالجه أطباء بطليموس ليشفى من جرحه وبعد ان يعذبوه يموت بأيديهم !

وطاف بانتيوس على جثث رفاقه وجعل يطعن كلا منهم طعنة فى قلبه

وصل الى الملك فاذا به يتحرك فاكب بانتيوس على يده يقبلها واغمد خنجره فى الصدر الملكى !

وبعد أن أيقن الرجل أن الحياة قد فارقت جميع الجثث المبعثرة حوله، قدم خنجره الى حبيبته ديمتريا واغمض عينيه ولم يفه بكلمة .

فأدركت الفتاة قصده ، وبأسرع من لمح البصر اخذت الخنجر من يده واغمدته بين ثدييها

فانتزع بانتيوس ذلك الخنجر المخضب بدم حبيبته الوفية ، وطعن نفسه الطعنة القاضية وسقط على الفتاة التى احبها جثة هامدة

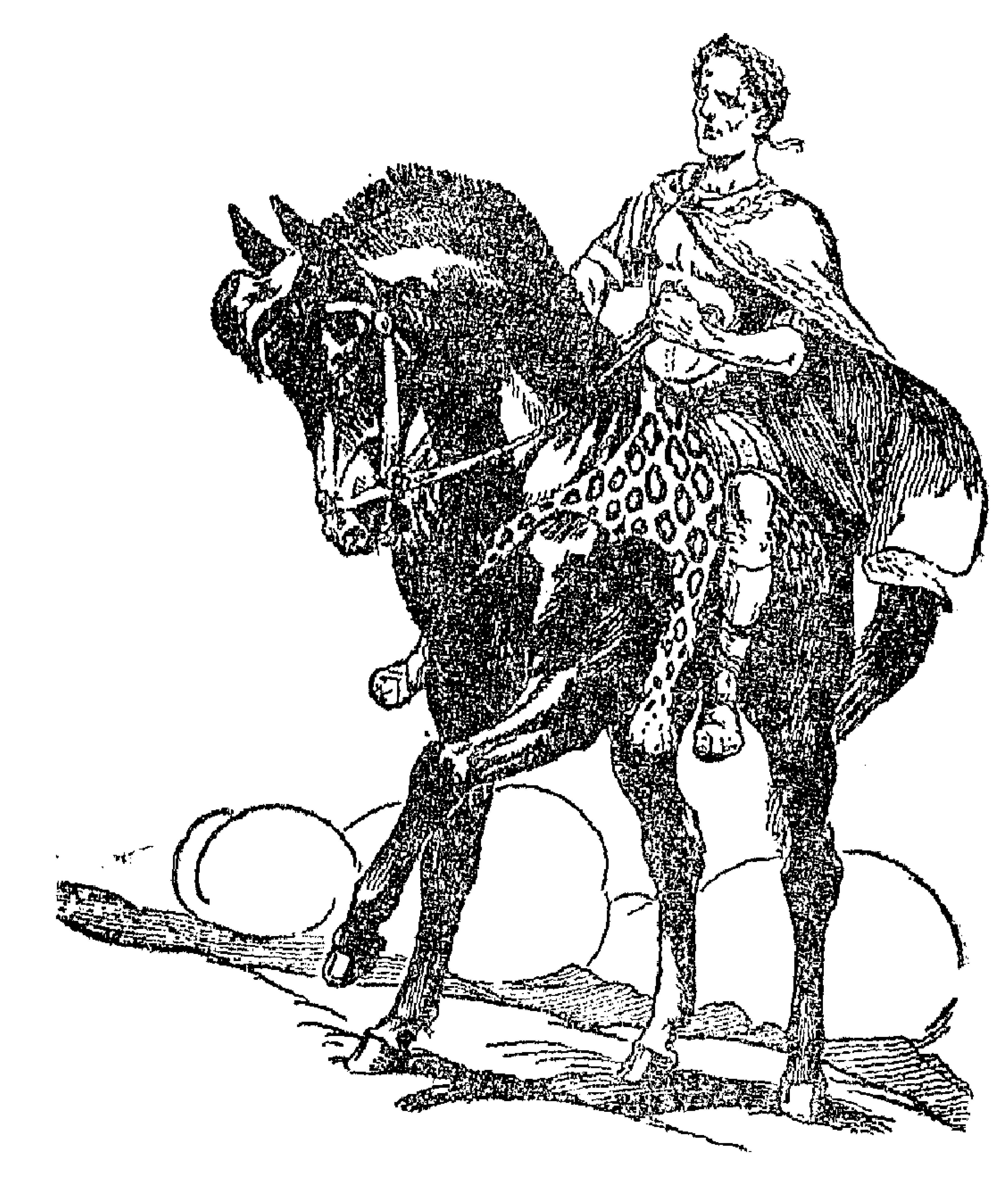
وكان ذلك فى سنة ٢٢٠ قبل الميلاد

***

بحث البطالسة كثيرا عن جواهر بطليموس الرابع ولكنهم لم يقفوا لها على أثر • وبقى امرها سرا من اسرار التاريخ يقترن فى الاسكندرية بسر قبر الاسكندر ، منشىء المدينة العظيمة •

القميص الأبيض

كان الفراعنة والملوك البطالسة فى مصر يصنعون لانفسهم ، ويهدون الى اصدقائهم قمصانا من خيوط القطن البيضاء ، ويعدون منها اكفانا للرقدة الاخيرة . . .



القائد الرومانى يوليوس قيصر

ـ على بالنساء جميعا : الوصيفات والساقيات والنديمات على السواء ، فانني في حاجة اليهن يا شرميون : ارغب في الافضاء على مسامعهن بأمنية لا شك عندى فى أنهن سوف يساعدنني على تحقيقها ، قبل رحيلي عن مصر بعد بضعة ايام

وأسرعت « شرميون » ، وصيفة كليوباترة ، الى تنفيذ أمر مولاتها ، فنادت رفيقاتها وصويحباتها من نساء القصر : ايينا ، وهاستيا : ورينابوث ، وفوتينا ، وايراس ، وغيرهن من مصريات ويونانيات : فانتظمن فى حلقة زاهية ضاحكة ، على شرفة القصر المطلة على مياه البحر الزرقاء فى الاسكندرية ، حول كليوباترة المستلقية على وسائد اريكتها ، فى ثوبها الشفاف ، وبجانبها الفهد الاليف الذى جاءها به جنودها هدية من كهوف النوبة ، يوم وصول يوليوس قيصر الى العاصمة المصرية

وقالت الملكة :

ـ اخواتى ، انكن أحب الناس الى . يكن أوثق وعليكن أعتمد فى السراء والضراء . وقد دعوتكن اليوم لأطلعكن على ما اعتزمته، واطلب منكن تحقيق رغبة نبتت فى صدرى الليلة ، وانا ساهرة فى مخدعى ، فهل لكن أن تصغين الى وتجبنني الى ما أريد ؟

فانطلقت من بين شفاه النساء الارجوانية كلمة واحدة ترددت وتكررت كتغريد العصافير :

ـ نعم : نعم ، نعم !..

واستطردت كليوباتره تقول :

ـ لقد احببت قائد الرومان يوليوس قيصر العظيم : واحبنى قيصر كما تعلمن حبا جامحا قويا ، سيطر على أعماله كلها وملك قيادى فخضعت له خضوع الأسير لآسره . ولكن القائد المحبوب بعيد عنا الآن ، يواصل مطاردة خصومه والقضاء على منافسيه فى أطراف الدولة الرومانية الشاسعة حليفتنا العزيزة . ومنذ ايام ، تلقيت منه خطابا يدعونى فيه انى اللحاق به فى روما . ولا يسعنى الا أن أرضخ لارادته ، فهل تنصحنني بالذهاب ؟

وانطلق التغريد مرة اخرى من بين الشفاه الحمراء :

ـ نعم ، نعم ، نعم ! ..

وارتسمت على ثغر الملكة ابتسامة الرضا والارتياح ، وعادت تقول :

ـ سأذهب اذن . وسأحمل معى كل ما يمكن أن تسعه السفينة من هدايا مصرية لقيصر المنتصر . غير أن هناك هدية ستكون على ما اعتقد احب الهدايا اليه : فقد فكرت فى ان نصنع له قميصا من خيوط القطن المصرى البيضاء يرتديه تحت حلته الرومانية الفضفاضة : فيفكر فينا كما تسربل به ويذكرنا كلما خلعه عن نفسه : ولكن أين هذا القميص ايتها الاخوات العزيزات ؟ ان الخيوط القطنية الرقيقة البيضاء لفى انتظار الأنامل التى تحوك سداها ولحمتها ! وقد أزف موعد الرحيل وسوف ابحر من الاسكندرية بعد ثلاثة أيام ! فهل أناملكن الناعمة على استعداد لصنع هذا القميص الناصع : قبل حلول الساعة التى تقلع فيها السفينة : من الميناء ؟

وللمرة الثالثة ، غردت الشفاه الحمراء :

ـ نعم ، نعم ، نعم ! ...

ونهضت كليوباترة فرحة مهللة :

ـ لنعمل اذن أيتها الصديقات الحبيبات ، وسوف تكون أنامل ملكتكن أبعد الأنامل دقة ، وأكثرها سرعة ، فى حياكة القميص المنشود !

* * *

فى ٩ من أغسطس سنة ٤٨ قبل الميلاد ، هزم « يوليوس قيصر » خصمه « بومبيوس » فى معركة « فرسـال » ، ولحق به الى مصر حيث لجأ القائد الهـارب الى الملك « بطليموس ديونيزوس » : فقتله الملك وأرسل رأسه الى قيصر ليسترضيه . ولكن القائد العظيم هالته هذه الخيانة : فعزم على الاقتصاص من القاتل ، وانقسم المصريون الى فريقين ، وانتهى الامر بأن هلك « ديونيزوس » غرقا ، واجلس يوليوس قيصر على عرش مصر أخته كليوباترة ، وشاركها فى الملك أخوها الثانى « بطليموس الطفل » الذى عقد زواجه عليها : عملا بالتقاليد المتبعة فى ذلك الوقت !

وكانت الملكة فى الحادية والعشرين من العمر ، وكان الملك اخوها وزوجها فى السادسة فقط ، ولم تكن كليوباترة الطموح لتحسب حسابا لهذا الشريك فى عرش عولت على الاستئثار به دون أفراد اسرتها جميعا ، فاعتزمت منذ تلك اللحظة أن توقع الرومانى المنتصر فى حبائل غرامها ، وأن تتحكم بقلبه ومن ثم بمصيره ، ثم تتخلص بمساعدته من الاخ الصغير الضعيف !

ووقع يوليوس قيصر فى الشرك الذى نصبته له الحسناء المتوجة: فأحبها ، وهو الكهل البالغ الثالثة بعد الخمسين من العمر ، واصبح لا يطيق صبرا على فراقها

ولبست الاسكندريه ، بأمر من الملكة ، حلة الأفراح والاعيـاد ، وشاهدت تلك العاصمة المصرية ، التى اتخذها القائد الرومانى الكهل ، وكليوباترة الصبية ، مسرحا لغرامهما العجيب ، بأروع مظاهر اللهو ، وأبهج الليالى الملاح ...

ولكن القائد اضطر اضطرارا الى الرحيل عن مصر لمواجهة الاخطار المحدقة ببلاده ، وقمع الثورات القائمة فى بعض اقاليمها ، فعز عليه الفراق ، وأوفد الرسل بعد الرسل الى حبيبته البعيدة ، لتلحق به فى روما عاصمة الامبراطورية ٠

***

أبحرت كليوباترة ملبية نداءه ، فى سنة ٤٥ قبل الميلاد ، بعد أن تخلصت من أخيها الزوج بالسم ، وجعلت وليا للعرش طفلها «قيصرون» ثمرة غرامها الرومانى ، حاملة معها الهدايا الثمينة ، ومن بينها القميص الابيض ، الذى حاكته أناملها وأنامل وصيفاتها من خيوط القطن المصرى فى ثلاثة أيام !

ــ انها لهدية أيها الحبيب سوف تذكرك بالحبيبة فى صحوك وفى نومك سواء أكانت كليوباترة بجانبك أم بعيدة عنك ، لان هذه الهدية ستلازمك أكثر من ظلك ، فتلامسك وتلامسها فى الليل والنهار !

وعانق يوليوس قيصر كليوباترة وقال بصوت تخنقه العبرات :

ــ وأنها أيتها الحبيبة لأعز الهدايا لدى ٠ فسوف ألبس هذا القميص الذى ساهمت أناملك فى حياكته ، وأباهي به ، وأعده ليكون لى فى نهاية العمر كفنا يلفنى فى طريقى الى العالم الآخر !

ونزلت ملكة مصر فى قصر أعده لها سيد روما على ضفاف نهر التيبر ، وأراد أن يحاكى البذخ فيه بذخ القصور المصرية على شاطىء الاسكندرية وضفاف النيل ، وشاهدت العاصمة الكبرى بدورها ــ وقد اتخذها القائد الرومانى الكهل ، وكليوباترة الصبية ، مسرحا لغرامهما

وخيل لهما ان الدهر لا يعد لهما غير السعادة والهناء ، وفاتهما أن الدهر غادر لئيم ، وأن السعادة لا تدوم ، والهناء لابد أن يتبعه شقاء !

***

فى الخامس عشر من شهر مارس سنة ٤٤ قبل الميلاد ، ذهب يوليوس قيصر كعادته الى مجلس الشيوخ الرومانى ، وقد أعد عدته لمواجهة الحملة التى قيل له أن خصومه من أعضاء المجلس سوف يشنونها عليه ، لمحاسبته على أعمال القسوة التى ارتكبها ضد الشعب ، وعلى الانحلال الخلقى الذى يبدو منه ، فى سلوكه مع الملكة الغريبة التى نسى واجبه بسببها

ولما هم بدخول قاعة المجلس ، دس رجل مجهول فى يده ورقة سطرت فيها كلمات التحذير من مؤامرة دبرت لاغتياله ٠ ولكن القائد المتكبر لم يأبه بالتحذير ولم يكترث ، ووقف صامدا متعجرفا يرد على التهم ويفندها ، حتى اذا ما اقترب منه المتآمرون وأحاطوا به ، وقدموا اليه عريضة يطلبون فيها العفو عن الاشخاص الذين اعتقلهم أو أطلق زبانيته فى اثرهم للقضاء عليهم ، صاح قيصر بهم قائلا :

« لن أعفو عن أحد ، وسوف يلاقى كل متآمر عنيد جزاءه ! »

حينئذ ، لمعت فى أيدى المتآمرين النصـــال ، وانهالوا بها على يوليوس قيصر ، صائحين : « مت اذن يا طاغية روما وظالم الرومانيين ! »

وسقط يوليوس قيصر على الأرض والدماء تنهمر من جراحه !

وأسرع أصدقاؤه وأعوانه لنجدته ، ولكنهم وصلوا اليه بعد فوات الوقت ، فرفعوا عنه الحـــلة الرومانية ، واذا بهم أمام جثة هامدة ، مزقت النصال صدرها ، ومزقت معه القميص المصرى الابيض ، الذى أهدته اليه كليوباترة ، والذى أصبح له كفنا لفه فى طريقه الى العـالم الآخر !

* * *

ومن يدرى هل الملكة الضالة لت تصـــنع لهذا الاخير ما صنعته الوصيفات وملكتهن كليوباترة من خـــيوط القطن البيضـــاء فى الاسكندرية . وعادت كليوباترة الى عاصمة ملكها حزينة حائرة ، ولكن حيرتها لم تطل ، فقد أوقعت فى حبائلها القائد الذى حل بعد يوليوس محله فى الشرق : « ماركوس انطونيوس »

أما قيصرون ، ابن القائد الصريع : فقد كتب له أيضا أن يموت قتلا مثل ابيه ، بأمر من أوكتافيوس ٥ فى سنة ٣٠ قبل الميلاد ، وهى السنة التى انتحر فيها انطونيوس وانتحرت فيها كليوباترة !

ومن يدرى هل الملكة الضالة لم تصنع لهذا الاخير ما صـنعته ليوليوس قيصر : قميصا ناصع البيـاض من القطن المصرى ، فكان لانطونيوس الفاسق كفنا ، كما كان من قبل لقيصر الطاغية كفنا !

مصيف المحبين

يسرح المصطافون فى رمل الاسكندرية ويمرحون ويداعب بعضهم بعضا على شاطىء البحر فهل يعلمون أنهم يجوسون بين صخور وتلال لجا اليها من قبل أبعد المحبين صيتا ، واعظم المحبات شهرة وجمالا ، وسحرا ودلالا ؟ ..



انطونيوس

اقتسم القائدان الرومانيان أوكتافيوس وانطونيوس العالم المعروف في ذلك الوقت بينهما قسمة حق وانصـــاف ، فكان الغرب من نصيب الأول : وكان الشرق من نصيب الآخر

واقلعت سفن أنطونيوس ومراكبه الى شواطيء افريقيـــة والشرق الادنى لتثبيت سلطان روما في الاقطار والامصـــار وفرض الجزية على المتمردين من الملوك والامراء ٠

وأقام انطونيوس في ســـــورية وطلب الى كليوباترة ملـكة مصر أن توافيه اليها فابحرت في أسطول صغير لم يشــهد العـــالم أسطولا يحاكيه بهاء وبذخا ورونقا . وكان ما كان من لقاء وحديث ، وسـهام تنطلق من عينين لم يضع الخالق في وجه انثى أجمل منهما ، ودلال جدير بربة الدلال في ذلك العصر ، وغرام بدأ امام أمواج البحر المتوسط في سورية ، وانتهى امام أمواجه في مصر !

عادت كليوباترة ادراجها الى الاسكندرية ، تاركة وراءها رجلا صعقه جمالها وأسره حبها ، فلم يطق صبرا على الفراق ، وما كادت المراة الساحرة تصل الى عاصمة ملكها ، حتى كان المحب الولهان قد تبعها اليها

وكان ذلك من شـــتاء ســنة ٤١ الى ٤٠ قبـــل الميـــلاد ، فقضى انطونيوس في ضيافة ملكة مصر بضعة أشهر ، ارتبطا معا بقيود لم تعد هناك قوة غير قوة الموت قادرة عى ازالتها

وعند ما اقبل الصيف بشمســـــه المحرقة وقيظه المزعج ، قالت كليوباتره لانطونيوس :

ـــ أين تقضي الصيف أيها الحبيب ؟

فأجاب القائد ، وقد تذكر واجبه العسكري ومهمته الرسمية :

ـــ كان بودي أن اقضي الحياة معك فلا افارقك لحظة واحدة ، ولكن روما تنتظر من فتاها أن يضيف صـــفحة جـديدة الى صفحات تاريخها المجيد ، فأزحف بجيشي الى بلاد الفرس لاخضاع البقية الباقية من شعوب الشرق ، وبعد ذلك فقط أعود اليك ايتها الحبيبة

ـــ ليكن ، غير انني أرغب اليك في أن تختار بنفسك المكان الذي تريد أن يقام فيه القصر الصيفي الذي عزمت على تشييده في ضواحي العاصمة ، لكي نأوي اليه في أيام القيظ !

وخرجت الملكة ذات يوم متنكرة في صحبة القائد وقد تنكر أيضا ، الى تلك الضواحي التي كان العظماء وارباب المال يقيمون في قصورها ، بعيدين عن ضوضاء العاصمة وأعين الرقباء

وكانت تلك الضواحى تمتد الى الشـمال الشرقى من المدينة واشهرها ضاحيه نيكوبوليس التى تتخللها البساتين والحدائق وتختبىء دورها بين الاشجار الكثيفة الوارفة الظلال

وكانت وصيفتا كليوبا رة ، ايراس وشرميون : تملكان معا دارا صغيرة فى تلك الضاحية ، قائمة على صخور الشـاطىء ، شـيدتها الوصيفتان بأموال سـيدتهما ، فكانتـا تقيمان فيها يوما أو آكثر فى الاسبوع ، كلما سمحت لهما كليوباترة بالتغيب

وكانت الوصيفتان تحبان شقيقين ، يدعى أحـدهما ماركوس والآخر سيلفيوس ، الحقهما انطونيوس بحرسه الخاص ، فعلق قلباهما بحب الفتاتين اللتين اختارتهما حبيبة سيدهما لخدمتها وملازمتها فى الليل والنهار

وضـعت ايراس وشرميون دارهما فى نيكوبوليس تحت تصرف الملكة والقائد الرومانى ، فقضيا فيها شهرا : بعيـدين عن الناس ، فى عزلة تامة عن العالم ، وقد أقبل كل منهما على الآخر بكليته

كان ذلك أول صيف يقضيه أنطونيوس فى مصر ، فأعجبته ضاحية نيكوبوليس ، وراقه المنزل الصغير الذى آوى اليه مع حبيبته ، وافضى اليها برغبته فى أن يقضى فيه أسابيع بل شـهورا أخرى اذا سـمحت الظروف .

وقالت كليوباترة :

ــ عنـد ما تعود الينـا قريبا من رحلتك الموفقة أيها الحبيب ، ستجد هذه الدار معدة لاستقبالك ، جديرة باقامتك فيها !

❋ ❋ ❋

سار انطونيوس الى الشرق على رأس جيشـه لمحاربة الفرس وغيرهم من الشعوب العاصية ، وكان ذكر كليوباترة التى سحرته بحبها يملأ قلبه ويحول أحيانا دون محافظته على التوازن فى ميادين القتـال وساعات الخطر ، فلم يوفق فى تلك الرحلة العسكرية كما كان يرجو . وأخيرا أمر جيشه بالارتداد وعاد أدراجه الى مصر

فوجد الدار على غير ما كانت عند ما ودع حبيبته فيها . فان كليوباترة عهدت فى أثناء غيابه الى كبار المهندسين فى عاصمة ملكها ، فى هـدم المنزل الصغير وتشييد قصر على أنقاضـه ، يكون أهلا لسكن الضيف العظيم

وقامت الدار الجـديدة فكانت جنة فيحاء ، فرشت حجرها بافخر الرياش ، وغرست فى حديقتها الأزهار من كل نوع ولون ، وعزلت من المنازل القـريبة بحيث اصبحت فى مأمن تام من أعين المتطفلين ، ونصبت فى حديقتها وعلى مدخل قاعاتها التماثيل .

ووصل انطونيوس الى الاسـكندرية فقادته كليوباترة فى الحال الى القصر

فطوق انطونيوس عنقها بدراعيه ، وقال فى اندفاع المحب الذى انساه الحب اقدس واجباته وحجب عنه المخاطر المحدقة به :

ـ سوف أنصرف بكليتى الى عبادتك هنا يا كليوباترة يا « سيدة الجميع »

وانغمس الحبيبان منذ ذلك اليـــوم فى خضم الملذات ، وتركا الاقدار تسوقهما الى النهـــاية التى تريد ، لا يدركان من حياتهما غير الساعة التى يعيشان فيها ، ولا يفطنان الى ما كان أعداؤهما يدبرونه لهما من مكايد

***

وفى ذلك القصر تبـــادل الحبيبان جميعا الاقســـام المغلظة بأن يظلا على الوفاء مقيمين

وهناك اقسمت كيوباترة واقسم انطونيوس بألا يظل احدهما على قيد الحياة اذا امتدت يد المنون قبله الى الآخر

وهناك اعلن القائد الرومانى عزمه على الزواج بكليوبارة ، بعد أن طلق زوجته الرومانية أوكتافيا ، فكان اعلانه هذا بمثابة خروج على وطنه وأهله

وقد وقع ذلك كله فى سنة ٣٦ قبل الميلاد ، فكان بدء الصراع بين انطونيوس حبيب كليوباترة والقـــابض على الشـــطر الشرقى من الامبراطورية الرومانية ، واوكتافيوس : شقيق زوجته المطلقة ، وسيد الشطر الغربى من تلك الامبراطورية

جعل كل من الخصمين يعد العدة للمعارك القادمة ، وكل منهما يعلم أن انهزامه معناه الموت المحقق . وظل انطونيوس وكليوباترة فى أثناء ذلك يأويان فى الصيف الى ذلك القصر فى نيكوبوليس ، كأنهما قد ادركا أن الوداع قريب وأن تنفيذ القسم الذى قطعاه على نفســيهما اوشك أن يأزف

وفى أوائل سنة ٣٢ قبل الميلاد ، اطلقت الحرب بين العـــدوين الرومانيين من عقـــالها ، ووضـــعت كليوباترة أسطولها تحت تصرف الحبيب الذى خاصم عشيرته ووطنه من أجلها

***

كان يوم ٢ من سبتمبر سنة ٣١ قبل الميلاد يوما من أيام التاريخ المشهودة . ففيه وقعت معركة اكثيوم البحرية بين السفن الرومانية الغربية بقيادة أوكتافيوس ، والسفن الرومانية الشرقية وقد انضمت اليها السفن المصرية بقيادة انطونيوس

وارادت كليوباترة أن تشهد المعركة بنفسها ، فالتحقت سفينتها بالاسطول المحارب . ولكن ، لسبب ما ، دب الرعب فى نفس الملكة ، فأصدرت عند ما حمى وطيس القتال امرها الى ربان السفينة بأن يدير دفتها الى شواطىء مصر ويهرب بها من حومة الوغى !

وفى لحظات معدودات ، كان الاسطول المصرى كله قد ابتعد بوجهته الاسكندرية !

فضاع صواب انطونيوس ، وفر من الميدان ، وصعد الى سفينة كليوباترة ! تاركا أسطوله لقمة سائغة لعدوه !

وسجل التاريخ فى ذلك اليوم حادثا من أروع حوادثه : حادث ضياع ملك كامل ، وشرف عسكرى كان نقيا ، وسلطان لم يكن يعادله فى العالم سلطان ، فى سبيل امرأة !

* * *

كان فى وسع انطونيوس أن يستعد للدفاع فى الاسكندرية وأن يحتفظ بجزء من امبراطوريته الواسعة ، وكان فى وسع كليوباترة أن تشد ازره فى ذلك وتحتفظ بعرش تبوأه آباؤها وأجدادها مدة ثلاثة أجيال كاملة . ولكن الحب كان يعمى الرجل والمرأة الى حد غفلا معه عن الحقائق والوقائع . فما يلفت بهما السفن أرض الامان على شواطىء مصر ، حتى عادا الى الانغماس فى ملذاتهما أكثر من قبل !

آثر انطونيوس وكليوباترة قضاء أيامهما ولياليهما فى القصر بدل أن ينصرفا الى اعداد الحصون والأسوار للدفاع . وجمع القائد الرومانى حوله عصبة من الشبان والشابات أطلق عليها اسم « الذين عولوا على الموت معه » وراح يبحث عن السلوى والعزاء عن انهزامه ، بين ذراعى حبيبته وفى أقداح الشراب !

وقضى انطونيوس وكليوباترة فصل الصيف فى نيكوبوليس .

شهدت نيكوبوليس بزوغ الحب بين الملكة والقائد ، وشهدت أيضا غروب ذلك الحب

ونظر الشعب الى ذلك كله نظرة ملؤها الدهشة والتساؤل ، وأطلقوا على الضاحية التى شهدت فصول تلك المأساة العجيبة اسم « مصيف المحبين »

وجعلت كليوباترة تتفنن فى اقامة المآدب وطلبت من الطهاة أن يعدوا لها الأطعمة النادرة ، ومن السقاين ان يجيئوا لها بألذ الخمور وأعتقها . وكانت تشرب مع الحبيب فى قدح واحد ، بعد أن تذيب فيه لؤلؤة من لآلىء عقدها ، لكى تزيد الخمر طعما . ! .

ولكن تلك الحياة الجنونية لم تدم . فان روما كانت قد عزمت على التخلص من القائد المتمرد الخارج على ارادتها ، ومن الملكة التى كان جمالها سببا لتمرده وخروجه

وأدركت كليوباترة انها هالكة وأن ذلك الصيف الذى تقضيه فى نيكوبوليس لن يعقبه صيف آخر ، فجعلت تعد لنفسها قبرا لائقا بها

شيد ذلك القبر فى معبد ايزيس بالاسكندرية ، وعند ما وصلت جيوش أوكتافيوس الى مصر ، حبست الملكة نفسها فى القبر وسدت المنافذ التى تؤدى اليه

وكان ما نقله الينا التاريخ من انهزام انطونيوس ، وبلوغه خبر موت حبيبته ، وانتحاره ، ثم معرفته أن كليوباترة لا تزال حية فى قبرها ، وحمله اليها ، وموته بين يديها ، ثم انتحارها بلسعة الحية ، ونزول الستار على الفاجعة !

* * *

بر انطونيوس وكليوباترة بالقسم فمات الاثنان ولم يطق أحدهما الحياة بعد ذهاب رفيقه

* * *

كانت ضاحية نيكوبوليس ، التى سماها سكان الاسكندرية فى عهد كليوباترة « مصيف المحبين » والتى شيدت فيها الملكة قصرها بين المكان المسمى الآن « بولكلى » والمكان المسمى « سان استفانو »

وقد مرت الاجيال والمصطافون مازالوا يفدون على شواطىء البحر بين المكانين ، والمحبون مازالوا يتبادلون الهوى أمام الأمواج والصخور . فليذكروا أن « مصيف المحبين » كان يمتد على تلك الشواطىء ، وأن ربة الحسن والدلال ، وسيدة النساء المحبات ، كليوباترة ملكة مصر ، أمضت فى ذلك المكان ، أطيب ساعات حياتها .

معشوقة كليوباترة

ما أكثر المآسي الصغيرة المتفرعة عن المأساة الكبرى ، التي عاشتها ملكة افتقدها حبها الأعمى عرشا كان بوسعها ان تحتفظ به، لو عرفت كيف تتحكم في قلبها •



انتحار كليوباترة

اشارت كيلوباترة الى الاماء والعبيد بالانصراف ، فسجدوا الى الارض فى حضرتهـا ، ثم توارووا وراء السجف والاعمدة والجدران ، وبقيت ملكة مصر الفاتنة مع وصيفتها المعتوقة سيدونيا ، فى القـاعة الواسعة الارجاء .

وقالت كليوباترة :

ـ لقد مللت الانتظار ياسيدونيا ، وضاق صدرى ولم أعد قادرة على الاحتفاظ بالسر الذى أكتمه عن الجميع !

فقبلت الفتاة يد مولاتهـا ومالت برأسـها على ركبـة كليوباترة وقالت :

ـ أى سر تعنين أيتهـا الملكة السعيدة ؟ أتسـمحين لهذه الأمة الطائعة ، والخادمة الامينة ، المدينة لك بالحياة والحرية ، بأن تستطلع مكنونات صدرك وتخفف ان استطاعت من كآبتك ؟

ـ اننى أحبك كثيرا ياسيدونيا ولا اخالك تشكين فى عطفى . فقد اطلقت حريتك ، وحطمت قيود الذل والعبودية التى ورثتها عن أبيـك وأمك . فأصبحت منذ سنة كاملة معتوقة حرة طليقة . شأنك فى هذا القصر وفى هذا البلد شأن الاحرار لا شأن الاماء والعبيد . وقد رغبت اليك فى اختيار الرجل الذى تريدينه زوجا لك ، فان وقع اختيارك على أحد الجنود أو على رجل من رجال القصر فهو لك وأنت له ، وأن وقع اختيارك على أحد العبيد فاننى أعتقه كما أعتقتك ويصبح لك وتصبحين له !

ـ نعم يامولاتى ، هذا ماسمعته منك مرارا . وقد أفضيت اليك بأمنيتى منذ أيام وقلت لك اننى أختار النوتى « هامو » زوجا لى .

ـ ان هامو عبد أسود . أرسله الى أحد أمراء الاحباش هدية من لدن زوجته ، فاستخدمته فى السفن الحربية الراسية فى ميناء الاسكندرية وقـد أجبتك الى رغبتك ، وحققت أمنيتك ، فمنحت هامو الحـرية وأصبح منذ أيام معتوقا مثلك . فهل أنت سعيدة ياعزيزتى ؟

ـ اننى سعيدة يامولاتى . ولكن سعادتى لن تكون كاملة الا اذا رايتك أنت سعيدة فرحة راضية !

فأمسكت كليـوباترة عن الجـواب ، ووضعت يدهـا على رأس سيدونيا المعتوقة المخلصة المحبوبة ، فرفعت الفتاة نظرها ، ورأت دمعتين تنحدران من مقلتى الملكة على خديها الورديين . فقالت بصوت مضطرب :

ـ مولاتى ! ما بك ؟

فأجابتها الملكة :

ـ تذكرين ياسيدونيا ذلك القائد الروماني الشاب . الذي رافقني الى الاسكندرية ، ثم رحل عنا على راس جيشه اللجب لفتح الامصار واخضاع الممالك وضم بلاد مادى وفارس الى أملاك الرومانيين ؟

ـ ماركوس انطونيوس ومن منا لا يذكره يا مولاتى . ونحن نعلم انه اصاب حظوة لديك ، وان قلبك يخفق بحبه ، ويطير شعاعا عليه ، وانك ترقبين عودته على احر من الجمر !

ـ لقد طالت غيبته ياسيدونيا . واعلمى مالا يعلمه الآن سواى فى هذا القصر : ان ماركوس أنطونيوس سيهجر زوجته الرومانية اوكتافيا ويحلنى محلها . وسوف نجلس معا على عرش واحد ، يخضع لصولجانه الشرق والغرب !

ـ ارجو أن تحقق الآلهة آمالك يامولاتى !

ولكن انطونيوس أبطأ فى العودة وهـذا ما يثير شجونى ويبعث القلق الى نفسى . انى أخاف عليه عاديات الزمان ومكايد الانسان . فارفعى معى أكف الصلاة للآلهة ، ولنضرع اليها طالبين منها أن تحرس انطونيوس فى غزواته وحروبه ، وفى كره وفره ، وفى ذهابه وأوبته !

وسجدت كليوباترة وسجدت سيدونيا . وارتفع صوت المراتين فى سكون الليل صاعدا الى مقر الآلهة مسيرة الاقدار ، والقابضة على مصير الاخيار والاشرار !.

* * *

هجر انطونيوس زوجته أوكتافيا وتزوج كليوباترة . ولكنه لم يجرؤ على المجاهرة بذلك ، واعلان نبأ هذا الزواج فى روما ، خوفا من هياج الرأى العام عليه ، وانصراف الانصار والاعوان عنه .

وكان خصمه وغريمه اوكتافيوس ، شقيق زوجته اوكتافيا ، يسعى الى هلاكه بجميع الوسائل المتوافرة لديه ، انتقاما لأخته من ناحية ، وطمعا فى الاستئثار بالسلطة دون أنطونيوس من ناحية أخرى . فجعل هذا العدو العنيد يعمل على حمل أنطونيوس على المجاهرة بأمر زواجه ، والاعتراف أمام الرومانيين بأنه هجر زوجته الرومانية الاصيلة لكى يحل محلها الملكة الاغريقية المصرية .

وسعت كليوباترة من ناحيتها الى حمل انطونيوس على اعلان خبر زواجهما ، لكى تبرر موقفها أمام رعيتها . فاضطر القائد الشاب فى النهاية الى الخضوع لاحكام الضرورة القاضية .

وفى سنة ٣٦ قبل الميلاد ، اذاع أنطونيوس فى طول البلاد وعرضها من أطراف مصر الى تخوم الدولة الرومانية ، انه أصبح زوجا لكليوباترة ملكة مصر ، وأن كليوباترة حلت بجواره محل زوجته المهجورة الرومانية أوكتافيا .

ومنذ ذلك الوقت جعل الرومانيون ينظرون اليه بعين الحذر والغدر ، نظرهم الى روماني عاق خائر النفس ، ويلتفون حول أوكتافيوس الروماني البار المخلص الامين .

واعمى الحب بصر انطونيوس وبصيرته ، فلم يدرك الخطر الداهم الذى بدأ يحدق به منذ تلك الساعة التى اذاع فيها ما أذاعه .

وبعد مدة قصيرة ، أمام الجموع المحتشدة فى ملعب الاسكندرية ، نادى ماركوس انطونيوس الرومانى بكليوباترة ملكة على مصر وقبرص وافريقية وسورية . وأشرك معها فى الملك الفتى قيصرون ابنها من يوليوس قيصر .

وكان قد استولد الملكة طفلين . فنادى بأحدهما ملكا على ارمينيا وبارتيا ومادى . وبالآخر ملكا على فينيقية وليبيا وقيلقيا ...

فكان جواب روما أن انعقد مجلس الشيوخ فيها ، واعلن على الملأ أن ماركوس انطونيوس « خائن للوطن » .

وكان ذلك الاعلان نذيرا بالنهاية التى ختمت بها فيما بعد حياة المحبين .

وبدأ القتال بين انطونيوس وأوكتافيوس فى سنة ٣٢ قبل الميلاد..

* * *

احيت كليوباترة حفلة زفاف رائعة ، دعت اليها حاشية القصر والاسر الشريفة فى الاسكندرية ، واعلنت فيها زواج وصيفتها المحبوبة ، سيدونيا الجميلة ، وقدمت للمدعوين الرجل الذى وقع عليه اختيار الفتاة : هامو العبد الحبشى ، الذى رفعته الملكة بارادتها السامية الى مصاف الاحرار والنبلاء .

واراد انطونيوس من ناحيته ان يكافىء معتوقة حبيبته على اخلاصها وتفانيها فى خدمة كليوباترة . فعين زوجها الاسود قائدا لاحدى السفن الحربية الرومانية التى جاء بها الى مصر .

وكان انطونيوس يدعو زوج سيدونيا الحبشى الى كل حفلة يقيمها فى القصر . وكانت كليوباترة لاتبدو على سريرها أمام الناس ، ولاتأوى الى خدرها طلبا للراحة الا والمعتوقة الجميلة بجانبها .

وكانت سيدونيا واسعة الحيلة ، تميل دائما الى المزاح ، وتبتكر لسيدتها وسائل اللهو والتسلية فى ساعات الملل والضجر ، أو تبحث لها عن منافذ للخروج من المآزق الصعبة ، فى الازمات النفسية أو السياسية قالت لها كليوباترة ذات يوم :

ــ حدث أمس ياسيدونيا أن دعانى انطونيوس الى نزهة على شاطىء البحر فى حديقة القصر . فلبيت الدعوة وطفنا معا فى أرجاء الحديقه . وجلسنا على ذلك النتوء البارز فوق المياه ، والذى تتكسر عليه الامواج المزبدة . وهناك كاشفنى انطونيوس بأمر فوجئت به :

كاشفني بالشكوك التي تخالج صدره من ناحيتي . فهو يعتقد أنني اوغب في التخلص منه بأن أدس له السم في الطعام والشراب . ان اعداءنا ياسيدونيا يحاولون بجميع الوسائل والطرق أن يفرقوا بيني وبين زوجي ، واخشى أن تدب بيننا العقارب ، وأن ينتهي حبنا الجميل بفاجعة تنهار معها سعادتنا .

ـ ينبغي يامولاتي أن تنظري الى الحقائق ، وأن تكوني دائما على حذر ، فان روما تعرف كيف تنتقم من الذين يسيئون اليها . وقد أساء اليها أنطونيوس اساءة عظيمة . ولكن مصيرك مرتبط الآن بمصيره ، ولابد من الاحتفاظ به ، وتغذية الحب في صدره ، وحمله على ان يضع فيك ثقته العمياء بلا قيد ولا شرط .

ـ وكيف السبيل الى ذلك ؟ ان ما أفضى به الى انطونيوس امس جعلني أفطن الى أمر لم أفطن اليه من قبل . أما رأيت انه في الولائم والحفلات ، يتجنب دائما ان يمد يده الى لون من الاطعمة قبل أن أسبقه اليه . ولايتناول شرابا الا من الكأس التي أشرب فيها ؟ انه يخشى السم ويخيل اليه انه في كل طعام وفي كل شراب .

ـ مولاتي . سوف نلقي غدا على زوجك الروماني درسا يعلم منه ان أشد النساء غباء في استطاعتها أن تخدع أذكى الرجال وأبعدهم ادراكا ...

***

جلس انطونيوس كعادته كل يوم ، مع زوجته كليوباترة على الشرفة الفسيحة المطلة على البحر ، أمام مخدع الملكة ، وحمل العبيد اليهما ألوان الطعام وأقداح الشراب .

فأكلا وشربا ...

وكانت كليوباترة تتناول الوان الطعام الواحد بعد الآخر . فتأكل منها وتقدم لزوجها . ثم تتناول الاقداح فتشرب وتسقي انطونيوس .

وبعد أن سكر الاثنان ، أخذت كليوباترة بيمينها كاسا تفيض بالخمر ، وتجرعت نصفها دفعة واحدة ، ثم نثرت فيها اوراق وردة حمراء كانت تحملها في شعرها ، وقدمت الكأس للحبيب العزيز .

فتناول أنطونيوس الكأس من يدها ورفعهاالى فمه وهم بشربها .. فصاحت كليوباترة ممسكة بيده :

ـ لاتشرب يا أنطونيوس ! أعد الي هذه الكأس .

فأعادها انطونيوس وقد ارتسمت على وجهه امارات الدهشة . ونظر الى كليوباترة وهو لا يدرك معنى ما تفعل ...

وقالت الملكة :

ـ سيدونيا ... خذي .

فأخذت سيدونيا الكأس من يد مولاتها . ونادت أحد العبيد وامرته باسم الملكة أن يشرب ...

أطاع الرجل صاغرا امر كليوباترة ...

وبعد دقائق معدودة ، سقط على الارض وفارقت روحه الجسد.

فطوقت كليوباترة عنق انطونيوس بذراعيها وقالت وهى تغمر راسه بالقبل :

ــ أيها المجنون الاعمى ! لو أردت التخلص منك ماعدمت حيلة لدس السم لك فى الطعام والشراب ولو بوردة كهذه .

فأدرك أنطونيوس أن الوردة مسمومة . وان زوجته ارادت أن تلقى عليه درسا وتبدد شكوكه بذلك الدرس .

وفى اليوم التالى قالت كليوباترة لسيدونيا :

ــ لقد نجحت حيلتك أمس ، وكان الدرس رائعا قاسيا .

❊ ❊ ❊

دارت رحى الحرب بين العدوين اللدودين أوكتافيوس وانطونيوس وسعى كل منهما الى القضاء على الآخر والاستئثار بالسلطان فى الشرق والغرب .

وفى ٢ من سبتمبر سنة ٣١ قبل الميلاد التقت سفن أوكتافيوس بسفن أنطونيوس وكليوباترة فى مياه «أكثيوم» على الساحل اليونانى .

وبدات المعركة ...

واذا بالسفن المصرية تقلع فجأة بعيدا عن دائرة القتال ...

واذا بالسفن الرومانية الموالية لانطونيوس تتبعها وتفر فى اثرها..

واذا بذلك اليوم المشهود يفتح أمام أوكتافيوس باب المجد على مصراعيه .

واذا بكليوباترة ، بين يوم وليلة ، تنقلب على زوجها أنطونيوس ، وتقيم فى سبيله العراقيل وتنصب له المكايد .

كانت تلك اليونانية الساحرة الفاتنة التي تبوات عرش مصر ، قد خدعت من قبل يوليوس قيصر العظيم وأوقعته فى حبها ثم خانت عهده

وخدعت بعده أنطونيوس وأوقعته فى حبها ثم خانت عهده أيضا .

وجعلت تفكر بعد أن ثبت لها ان أوكتافيوس منتصر وانطونيوس منهزم بلاشك أمام خصمه ، فى اغواء هذا الخصم والتسلط عليه .

وأدرك انطونيوس الحقيقة المرة ، ولكن بعد فوات الوقت ..

مرت سنة كاملة منذ اليوم الذى انهزمت فيه سفن كليوباترة وانطونيوس بلا قتال فى اكثيوم ، والقـائد الرومانى يتقلب على نيران الحب والغيرة والفيظ والاسى ، وكليوباترة تسحره بألفاظها تارة وتزجره تارة أخرى .

وفى الاول من اغسطس سـنة ٣٠ قبل الميـلاد وصـل جيش أوكتافيوس الى أبواب الاسكندرية وخرج جيش انطونيوس للقائه .

لابد من القتال . وستكون معركة فاصلة : فاماأن ينهزم الرومانيون بقيادة أوكتافيوس فيخلو الجو لانطونيوس . واما أن ينتصرأوكتافيوس فيخضع له الشرق والغرب ، ويقضى على أنطونيوس وزوجته .

❋ ❋ ❋

ـ سيدونيا .. تعالى .. لا أريد أن يلحق بى سواك ياصديقتى المحبوبة . هيا بنا الى ذلك الضريح المظلم .

ـ وهامو يامولاتى ؟ الا تسمحين له بالمجىء معنا ؟

ـ ليأت .. وليسرع .

خرجت كليوباترة ومعهـا معتوقتهـا سـيدونيا وهامو الحبشى الاسود ، من القصر الملكى فى الاسكندرية فى تلك الليلة الليـلاء ، تحت ستار الظلام الحالك ، ولجئوا الى الاقبية السوداء التى تضم أضرحـة البطالسة آباء كليوباترة وأجدادها .

وسألت الملكة معتوقها هامو :

ـ هل نفذت أوامرى كما اصدرتها اليك ؟

ـ نعم يامـولاتى . ان قـواد الجيش وقواد السـفن لن يطيعوا انطونيوس ولن يلبوا دعوته الى القتال ...

ـ انني خائفة ياهامو ، خائفة باسيدونيا . وأخشى ان يلحق بى انطونيوس الى هنا ، وينزل بى العقاب الذى أستحقه . فياله من حب ينتهى اليوم بهذه الخاتمة المفجعة .

❋ ❋ ❋

قضت كليوباترة ليلتها بين اضرحة الملوك فى تلك الاقبية المظلمة..

وتمرد الجيش . وتمرد الاسطول ...

وأدرك ماركوس انطونيوس أن الدائرة قد دارت عليه فطعن نفسه بسيفه ومات منتحرا ...

ودخل أوكتافيوس مدينة الاسكندرية ظافرا منصورا ، واعلن انه سيجر وراء مركبته ملكة مصر الحسناء مربوطة بشعرها ، وانه سيطوف بها على هذه الصورة فى مدينة روما العظمى .

لكن كليوباترة لم تمكنه من نفسها . فماتت من لسعة حية حملها اليها فلاح مصرى بالتواطؤ مع المعتوق هامو الحبشى ، وزوجته سيدونيا

وفى اليوم الذى ماتت فيه كليوباترة ، عثر جنود أوكتـافيوس ، وهم يفتشون القصور والمنازل والاقبيـة ، على جثتين متعانقتين ، فى ضريح البطالسة : جثة العبد الحبشى المعتوق ، هامو القائد البحرى ، وجثة الجارية المعتوقة سيدونيا الجميلة .

واستولى أوكتافيوس على كنوز البطالسة . واصبحت مصر منذ ذلك اليوم ولاية رومانية على راسها حاكم رومانى .

عاشقة الأمواج

كانت أمواج البحر مرتعا لها ، لا يجاريها أحد في شق عبابها . ثم شاءت الأقدار أن تصبح الأمواج لها كفنا !



ميلونا

سقط يوليوس قيصر العظيم مضرجا بدمه تحت خناجر القتلة الذين هاجموه كالذئاب المفترسة فى مجلس الشيوخ الرومانى بقيادة بروتوس ، وكاسيوس ، فى سنة ٤٤ قبل الميلاد ، فتولى الحكم بعده ثلاثة رجال هم أوكتافيوس ، وماركوس انطونيوس ، ولبيدوس أنطونيوس فزحف الثانى الى الشرق حيث رفع أعلام الرومانيين ، وعزم على متابعة السير الى مصر ، للقاء الملكة كليوباترة الجميلة الساحرة ، التى كان قيصر قد فتن بها عندما هبط الاسكندرية ، بعد القضاء على أعدائه ومزاحميه .

وكان انطونيوس يشك فى ولاء الملكة المصرية الاغريقية ، فأوفد اليها الرسل من مدينة طرسوس بسورية ٠ لتأتى الى مركز القيادة الرومانية فى تلك المدينة ، وتقدم له الحساب .

وقد سافرت الملكة فى موكب فخم لم يذكر التاريخ مثيلا له فى العظمة والجلال ، واستطاعت ارضاء القائد الرومانى الشاب الذى بدأ حديثه معها بلهجة السيد الآمر وختمه بلهجة العبد الطائع ٠

كان ذلك فى فصل الشتاء بين سنتى ٤٢ و ٤١ قبل الميلاد . وفى تلك الليلة التى جمعت بين كليوباترة وأنطونيوس طويت صفحة من صفحات التاريخ ونشرت صفحة جديدة ملأى بالروائع والفواجع .

عادت كليوباترة الى الاسكندرية ومعها القائد الرومانى ، وقد امسى محبا مغرما ، وعزم منذ ذلك الوقت على الاستئثار بالملك فى المشرق الرومانى ، واشراك حبيبته فيه .

***

واصطحب أنطونيوس من سورية طائفة من الحسان جعلهن فى خدمة الملكة المحبوبة ، وبين أولئك الحسان فتاة فينيقية يتيمة ، جىء بها الى مركز القائد الرومانى مع سبايا الحرب اسمها « ميلونا » .

عرفت ميلونا بين رفيقاتها ، بأنها تحسن الصيد والقنص والسباحة وتمارس أعمال الفروسية بأنواعها ، وكانت الى ذلك لاتجهل فنون البهرجة وخدمة ربات القصور .

وقد عرفت كيف تتقرب من سيدة قصر الاسكندرية ، فلم يكد ينقضى شهر واحد على اقامتها فى مقرها الجديد ، حتى آثرتها كليوباترة على بقية الخدم ، وكانت تدعوها الى ملازمتها فى كل نزهة خارج المدينة وخصوصا عندما تذهب الملكة الى شاطىء البحر . للاستحمام والجلوس على الصخور .

ذهب انطونيوس على رأس جيش لجب لفتح بلاد فارس ومادى ، ولكنــه عاد مسرعا دون أن يكلل الفوز مســعاه ، وعندما وصــل الى الاسكندرية ، وضمته كليوباترة بين ذراعيها بعد طول الغياب ، أدرك انه أصبح ملكا لها فاقدم على عمل كان الخطوة الاولى نحو هلاكه ، فقد طلق زوجته أوكتافيا وأعلن زواجه بملكة مصر كليوباترة الجميلة .

كان ذلك فى سنة ٣٦ قبل الميلاد . فلم يكد الخبر ينتهى الى روما حتى قام أوكتافيوس يعلن من فوق المنابر ، أن أنطونيوس أصبح خائنا للوطن وعدوا لروما ..

لكن انطونيوس لم يعبأ بغضب قومه وثورة زميله ، بل طلب الى كليوباترة إن تقيم الافراح فى الاسكندرية ، احتفالا بالزواج الميمون .

فبرزت المدينة فى أبهى مظاهرها ، ونصبت الخيام على شــاطىء البحر ، خارج الاسكندرية ، حيث ضرب قيصر خيامه عندما هبط ارض مصر ، وهو المكان الذى أطلق عليه منذ ذلك الوقت اسم «كامبوتشيزارى» أو « معسكر قيصر » ..

وهناك ، امام امواج البحر المتكسرة على الصخور فــوق الرمال الناعمة ، جلس المدعوون حول انطونيوس وكليوباترة يقرعون الكئوس ويشربون السلاف ، ويتفرجون بمصارعــة العبيد ورقص الجــوارى وسباق السباحين والســباحات . وبينما كان كل منهم منصرفا الى ملاذه ، قالت كليوباترة لزوجها :

ــ انظر أيها الحبيب العزيز : ان هذه الفتاة التى تخوض عباب الامواج أمامنا ، فيعجز الرجال عن اللحاق بها ، لامهر امراة نزلت الى البحر وعامت فوق مياهه . الا تذكرها ؟

ــ كلا أيتها المحبوبة المعبودة .

ــ ميلونا ! الا تذكر ميلونا التى جئت بها من سورية ؟

ــ لقد نسيت اسمها . ولكننى أذكر الآن ماسمعته عنها . فقد قيل لى ان فى استطاعتها البقاء تحت الماء مدة طويلة ، بلا عناء . . .

ــ هذا صحيح .. فقد رأيت من مهارتها العجب العجاب .

وأرسلت كليوباترة فى طلب الفتاة فجاءت الى مضرب الملكة وعليها معطف من الحــرير الشــفاف ، يلف جســما بديع التكوين ، متناسب الاعضاء يميل الى السمرة .. فبادرها انطونيوس قائلا :

ــ الا ترغبين فى الزواج ياميلونا ؟ حرام أن يبقى هــذا الجمــال الساحر مهملا ..

فنظرت الفتاة الى القائد الجميل بلا خوف ولا وجل واجابت :

ــ اننى أرغب فى الزواج يا أنطونيوس وحبذا لو اتاحت لى الأقدار أن أجد الزوج الجميل الذى يشبهك . ولكننى اقسمت الا اتخــذ لى

بعلا غير الرجل الذى يفوز على فى السباحة . ولم أجد بعد ذلك الرجل المنشود ، وأخشى الا أجده أبدا .

ــ وما حملك على هذا القسم العجيب ؟

ــ كنت فى بلادى مخطوبة لشاب سورى مثلى ، كان فريد عصره فى السباحة ، يعوم على وجه الماء ، ويشق عباب البحر فيسبق السفن ولكنه لقى حتفه فى القتال فمات مدافعا عن أبى ، الذى قتل فى المعركة التى سقط فيها خطيبى ، فامتزجت دماء الاثنين ، وفاضت روحهما الطاهرتان فى لحظة واحدة . ومنذ ذلك الوقت بقيت وحيدة فى هذا العالم ، لاسند لى ولا معين . فاذا كان عندك ذلك الرجل الماهر فى السباحة كما كان خطيبى ، فاننى أعطيه قلبى دون أن اندم على مافعلت ودون أن أغضب روح الحبيب الاول .

أصغى انطونيوس الى قصة الفتاة . ثم أفرغ كأسه فى فمه للمرة العاشرة ، وصاح بالضباط والجنود الواقفين حوله قائلا :

ــ أليس بينكم يا أبناء روما ومصر ، من يغلب هذه السورية الحسناء فى السباحة فيأخذها زوجة ، وينعم بما أغدقته عليها الطبيعة من سحر وجمال ؟ الى البحر ياطالبى الزواج .

وكانت ساعة عجيبة ، تلك الساعة التى اندفع فيها الرجال والشبان والصبيان كالسيل المتدفق لمقابلة الامواج ، من شاطىء « كامبو تشيزارى » .

نزل الى البحر عشرة ، وتبعهم عشرون فعشرون . ولحق بهم آخرون وآخرون . وبدا البحر كأن عشرات السفن قد تحطمت فيه ، فألقت برجالها الى اليم ، ونزلت ميلونا الحسناء بين تلك الجموع السابحة ، فجعلت تخترق صفوفهم وتشق الامواج ، ثم تغيب عن الانظار تحت الماء وتبدو بعد لحظة فى مكان آخر ، وكل يحاول اللحاق بها على غير جدوى .

وظلت المباراة ساعات ، تعب فيها من تعب فعاد الى الشاطىء منهوك القوى ، وثابر فيها من ثابر ففرق ، أو أشرف على الفرق ، فأنقذته ميلونا نفسها من الهلاك . وأخيرا ، أصدرت كليوباترة أمرها بانتهاء المباراة ، وأعلنت فوز ميلونا السباحة التى لاتجارى .

* * *

مرت الاعوام وانطونيوس وكليوباترة ينعمان بالحب ويرتشفان كئوسه . وميلونا تبحث عن الزوج المنشود فلا تجده .

وكانت روما تعد العدة للقضاء على انطونيوس الخائن فى نظر الرومانيين أجمعين . فدارت رحى القتال بين الفريقين برا وبحرا ، حتى دارت الدائرة على انطونيوس اذ تخلت عنه كليوباترة بأن أمرت سفن مصر بالعودة الى الاسكندرية قبل بدء المعركة ، فتبعها انطونيوس وأصبح أوكتافيوس سيد الموقف بلا قتال .

حمل أوكتافيوس على سورية ففتحها ، ودخل الى مصر حيث زحف على الاسكندرية لمقاتلة خصمه . فالتقى الجيشان فى «نيكوبوليس» وهى ضاحية من ضواحى الاسكندرية بين المكانين اللذين تقوم فيهما الآن ضاحيتا « بولكلى » و «سان استيفانو» ، وفى تلك المعركة سجل النصر النهائى لاوكتافيوس . فقد عصى رجال أنطونيوس طاعة قائدهم ويقال : انهم فعلوا ذلك بأمر خفى من كليوباترة ، التى غرتها وعود أوكتافيوس فخانت حبيبها ظنا منها أنها ستحتفظ بعرشها من هذا السبيل .

* * *

فى الأول من أغسطس سنة ٣٠ قبل الميلاد ، دخل أوكتافيوس مدينة الاسكندرية فاتحا ، بعد أن يئس أنطونيوس من النصر ، فانتحر مفضلا الموت على الاسر .

وكانت كليوباترة ترجو النجاة ، لكنها ادركت فى النهاية ان أوكتافيوس لن يصفح عنها بل سيأخذها الى روما ذليلة مهانة . فانتحرت كحبيبها .

واعلن أوكتافيوس بعد وفاة خصميه ، ان ارض مصر اصبحت ولاية رومانية . وانه هو الوارث لكنوز البطالسة .

* * *

خرجت ميلونا من قصر الملكة فى ذلك اليوم المشئوم ، هائمة على وجهها ، واجتازت أسوار المدينة آملة أن تجد باب النجاة مفتوحا . ولكنها عندما وصلت الى شاطىء البحر ، « كامبو تشيزارى » وجدت نفسها بين مضارب الجند ، وقد نصبت فى المكان الذى نصب فيه قيصر خيامه قبل ذلك الوقت ببضعة أعوام .

رآها الجنود حيرى مذعورة ، تتخطى الصخور وتحاول الهرب : فوثبوا الى ناحيتها وحاولوا اللحاق بها وهم يصيحون :

ــ امراة مصرية ! امراة مصرية !

أدركت الفتاة أنها هالكة بلا شك ، لو وقعت فى أيدى أولئك السكارى ، ففكرت فى الانتحار ثم صاحت بالجند المسرعين خلفها قائلة :

ــ يا ابناء الذئبة الرومانية ! اذا كنتم تريدون امراة جميلة ، فالحقوا بها الى البحر ، ومن يستطيع منكم أن يدركها ، يفز بها ؟ .

والقت ميلونا بنفسها فى البحر ، وجعلت تخوض عباب الماء .
فاستولت الحماسة على بعض الجنود ، فنزلوا وراءها الى البحر

وشهد شاطىء « كامبو تشيزارى » مباراة ثانية ، كتلك التى شهدها يوم الاحتفال بزواج أنطونيوس وكليوباترة .

ولكنها مباراة من نوع آخر .. فقد نزلت ميلونا الى البحر فى هذه المرة وهى عازمة على ألا تعود .. ولم تعد .

ذات القلبين

أحبت رجلين ، وأخلصت ، للاثنين ،
وقتلت نفسها مرتين ، فكان حبهـــا
أعجب حب تحدث عنه الناس ٠



كليوباترة ملكة مصر

ـ أتحبينني يافينا ؟

ـ أحبك يالوكوس .

ـ أتقسمين لي يمين الاخلاص في الحب ؟

ـ الى النهاية .

ـ اذن سأرحل هادئا مرتاح البال الى الحروب والغزوات ، واثقا بك عالما انك ستفكرين في وترفعين صلواتك الى الآلهة لكي تأخذ بيدي وتدفع عني الموت في الميادين

قال لوكوس هذا وطبع على جبين حبيبته «فينا» قبلة حارة وانصرف من مخدعها عائدا الى ثكنات الجيش .

وبعد نصف ساعة ، كان في المخدع شاب آخر ، بهي الطلعة طويل القامة قوي العضلات مثل لوكوس .

ودار بينه وبين الفتاة فينا الحديث الآتي :

ـ أتحبينني يافينا ؟

ـ أحبك يالاجوس .

ـ أتقسمين لي يمين الاخلاص في الحب ؟

ـ الى النهاية .

ـ اذن سأرحل هادئا مرتاح البال الى الحروب والغزوات ، واثقا بك ، عالما انك ستفكرين في وترفعين صلواتك الى الآلهة لكي تأخذ بيدي وتدفع عني الموت في الميادين .

قال لاجوس هذا ، وطبع على جبين حبيبته « فينا » قبلة حارة مثل قبلة لوكوس ـ وانصرف من مخدعها عائدا الى ثكنات الجيش .

***

امرأة تحب رجلين .

ليس هذا مايدعو الى الدهشة والاستغراب ، فان التاريخ يذكر في سجلاته اكثر من حادث واحد من هذا النوع . انما العجب كل العجب في ان تحب المرأة رجلين حبا قويا عميقا ، يدفعها الى التضحية في سبيل الاثنين . والعجب كل العجب في أن يكون كل من الرجلين المحبوبين عالما بمكانة خصمه لدى المرأة ، وأن يكون راضيا بذلك ، متفقا مع غريمه على ان ينتحي أحد الاثنين طائعا مستسلما عندما تجاهر الفتاة في حضورهما بأنها تفضل هذا على ذاك ، أو ذاك على هذا . .

ـ أتحبينني يافينا ؟

تلك كانت حالة الحبيبين المحبوبين ، لوكوس الروماني ولاجوس اليوناني ، مع الفتاة فينا ، في قصر ملكة مصر كليوباترة .

من « فينا » المثيرة ذلك الحب المزدوج ، وصاحبة القلب المشطور الى شطرين ؟

هي فتاة مجهولة الاصـــل ، لم يعرف أحد من أمرها شيئا ، لان الرجل الذى كان مطلعا على سر حياتها مات فى القصر فجأة ، وقيل على أثر موته ان يدا أثيمة دست له السم فى الطعام ، وان تلك اليد هى يد الفتاة « فينا » نفسها . لانها كانت تريد التخلص من سيطرته عليها .

اما الرجل فاسمه « عمـــرو » وهو عربى جاء مصر بعد دخول يوليوس قيصر الى الاسكندرية وجلوس كيوباترة على عرش البطالسة . وكانت الفتاة « فينا » تصحبه وهى فى العاشرة من عمرها

رأتها كليوباترة فاحبتهـا وأخـذتها وصـيفة ونجية .. وكانت الوصائف الاخر فى القصر يتهامسن فيما بينهن قائلات :

ـ هذه الفتـاة هى أخت الملـكة . فان أباها بطليموس كان يحب امرأة عربية . وقد استولدها هذه الفتـــاة ثم قتلها وأرسل الطفلة مع احد المقربين اليه وأعطاه مبلغا من المال ، قائلا له أن يرحل عن مصر ولا يعود اليها الا بعد موت الملك . فعاد عمـرو مع الفتاة ابنة بطليموس بعد أن آل العرش الى كليوباترة ! ..

هذا ما كانت الوصائف يتهامسن به فى القصر . وقد بلغت هـذه الاشاعات مسامع الملكة فثار ثائرها ، وغضبت على وصائفها ، وساءها أن تتناقل الألسنة خبرا مثل هذا وارادت أن تكذبه علنـــا ، فأغدقت نعمها على الفتاة الغريبة اليتيمة ، وقدمتها لماركوس انطونيوس حبيبها الرومانى المتيم ، قائلة له : انها ابنة قائد من قواد الجيش فى عهد أبيها ، وأنها تحبها حبا جما وتعاملها فى القصر معاملة الأخت لأختها .

وكانت الفتاة « فينـــا » غريبة الاطوار ، غريبة الاخلاق ، غريبة الاعمال ، يخيل الى من يعاشرها ويجالسها انها مزيج من المتناقضات ، أو انها مكونة من شخصين شاءت الطبيعة ان تجعل منهما شخصا واحدا

كان فى استطاعة فينا أن تضحك وتبكى فى آن واحد ، وأن تبدو فى لحظة واحدة هادئة هائجة ، راضية ناقمة ، نائمة مستيقظة !

وتلك الظواهر الغريبة الشاذة كانت تحمل رجال الحاشية الملكية ونساء القصر على الاعتقاد بأن الفتاة المقربة من الملكة ليست امرأة كبقية النساء ، وأن للآلهة المسيطرة على مقدرات البشر يدا فى تكوينها !

وكان أغرب تلك الظواهر الداعية الى الدهشة والتســاؤل ، ميل الفتاة « فينا » الى رجلين وشطر قلبها شـــطرين . فانها كانت تحب « لوكوس » الضــابط الرومانى فى حرس كليـوباتره ، وكانت تحب « لاجوس » الضابط اليونانى فى فرقة « فرسان الموت » . وكانت تجاهر أمام الاثنين بانها تحب كلا منهما حبا خالصا أكيدا ، وانهــا لا تفـرق ولا تستطيع ان تفرق بين الواحد والآخر !

وكانت الملكة كليوباترة ، وهى المجربة ، والمطلعة العليمة بأسرار

أما كان الناس يعتقدون ان للآلهة يدا فى تكوين الفتاة الحسناء المجهولة الأصل ؟

***

ومضت أسابيع أخرى . وتماثلت «فينا» للشفاء دون أن يعود قلبها الى الخفقان .

وحمل الرسل أخبارا سارة عن فوز « فرسان الموت » فى تأديب القبائل العاصية واعادها الى حظيرة الطاعة

وكانت هذه الأخبار كالاخبار السابقة ممزوجة بالأسى : فان فرقة الفرسان فقدت فريقا من رجالها الأشداء . وكان الضابط لاجوس بين القتلى الذين حمل الرسل خبر مصرعهم فى ساعة الشرف !

علمت «فينا» بما حل بحبيبها الآخر، فلم تطق صبرا على هذه الكارثة وتناولت خنجرها الذهبى المعهود ، وأغمدت نصله فى صدرها ـ ناحية اليمين ـ وخرت على سريرها غارقة فى بحر من الدماء !

كانت الطعنة الثانية هى القاضية . فقد عجز أطباء القصر عن اعادة الحياة الى جسم الفتاة العاشقة ، فبكتها الملكة كليوباترة ، وامرت بأن تدفن فى حدائق القصر تحت شرفة مولاتها ، وأن تزرع الازهار على ضريحها !

ولكن الملكة أرادت أن تحتفظ بأثر من آثار الفتاة التى قتلت نفسها مرتين فى سبيل حبها المزدوج . فطلبت من الأطباء أن ينتزعوا قلب «فينا» من صدرها ، وأن يضعوه فى أناء زجاجى ويرسلوه الى كليوباترة للاحتفاظ به فى حجرتها التى كانت تذوق فيها مع أنطونيوس ألذ ساعات مرت بها فى حياتها ...

وأجيبت الملكة الى طلبها . ومزق مبضع الاطباء صدر الفتاة !

ووقفت الاطباء مذهولين دهشين مذعورين أمام المنظر الذى وقعت عليه عيونهم ولمسته أيديهم . فقد وجدوا فى صدر الفتاة قلبين !

وجدوا قلبا الى اليسار !

ووجدوا قلبا آخر الى اليمين !

كانت الفتاة فينا اذن ذات قلبين ، وكانت ذات حبين ، وكانت ذات شخصيتين متباينتين أفرغتا فى جسم واحد !

اذن فهى امرأتان فى امرأة

وكان غرامها أعجب غرام عرفه التاريخ . فقد خفق قلبها الايسر بحب الضابط لوكوس الرومانى . وخفق قلبها الايمن بحب لاجوس الضابط اليونانى . وقتلت نفسها مرتين بأن مزقت قلبها الذى أحب لوكوس بعد موته . ومزقت قلبها الذى أحب لاجوس بعد موته أيضا !

الحب ، تعلم ذلك وتشجع الفتاة على المضي في الحبين معا ، الى أن يجيء اليوم الذي تشعر فيه بأن في استطاعتها أن تستغني عن أحد الحبيبين دون أن يصاب قلبها بجروح تدميه !

وشاهد سكان القصر الملكي ، في وقت من الأوقات ، أعجب حب عرفوه : حب الفتاة « فينا » المجهولة الأصل ، وظهورها أمام الناس متأبطة ذراعي رجلين ، هما في الواقع صديقان وخصمان في آن واحد !

***

تمردت فرقة من الجيش الروماني الذي تبع ماركوس انطونيوس الى مصر واقام فيها مع القائد الحبيب : فزحف حرس الملكة على العصاة لتأديبهم وذهب الضابط لوكوس الى الميدان

وتمردت القبائل على الحدود ، فزحفت فرقة « فرسان الموت » على العصاة لتأديبهم وذهب الضابط لاجوس الى الميدان .

وعكفت الفتاة فينا على الصلاة ، وحبست نفسها في حجرتها وجعلت تضرع الى الآلهة ليلا ونهارا بأن تحرس الحبيبين في ساحات الوغى ، وترد عنهما الأسنة والسيوف !

مضى أسبوعان ثم مضى أسبوع ثالث ، وأذا بالرسل تعود الى القصر حاملة أخبارا سارة من فوز الحرس في خنق عصيان الرومانيين واعادتهم الى حظيرة الطاعة !

لكن تلك الاخبار كانت ممزوجة بالأسى : فان فرقة الحرس فقدت فريقا من رجالها الأشداء . وكان الضابط لوكوس بين القتلى الذين حمل الرسل خبر مصرعهم في ساحة الشرف !

علمت فينا بما حل بحبيبها ، فلم تطق صبرا على هذه الكارثة وتناولت خنجرها الذهبي الصغير ، وهو هدية من الملكة كليوباترة : واغمدت نصله في صدرها . فسقطت على الأرض والدم يسيل من جرحها ...

بل من قلبها ...

فان الفتاة الوالهة طعنت نفسها بذلك الخنجر الذهبي ناحية اليسار من صدرها المرمري ، فمزق النصل الحاد قلب فينا تمزيقا : وتدفقت الدماء منه على بلاط الحجرة أمام تماثيل الآلهة التي لم تستجيب صلوات المسكينة !

ولكن حدث بعد ذلك ما جعل القصر كله يموج كالبحر الزاخر ، وتتصاعد فيه الأصوات من كل ناحية وصوب : أصوات الدهشة وأصوات الاستغاثة والأصوات الخوف والذعر !

مزق النصل قلب الفتاة ولكن الفتاة لم تمت ! ووقف قلبها عن الخفقان ولكن الحياة لم تفارق ذلك الجسد البديع !

وحفظ القلبان فى اناء زجاجى فى حجرة الملكة كليوباترة !

وعندما انهزمت جيوش الملكة وحليفها انطونيوس ، وانتحرالقائد الرومانى ، ودخل عدوه أوكتافيوس الاسكندرية فائزا منصورا ، وماتت كليوباترة تلك الميتة المعروفة ، وجد الرومانى المنتصر أوكتافيوس ، فى حجرة الملكة ، ذلك الاناء الزجاجى ، فحمله معه الى روما بعد أن سمع من الرواة قصة الفتاة «فينا» ذات القلبين ، وذات الحبين !

وكان ذلك فى سنة ٣٠ قبل الميلاد !

المصريات الصائمات

لم يطقن صبرا على البقاء بعيدات منفيات عن وطنهن ، فاضربن عن الطعام وأرغمن الامبراطور الطاغية على اجابة طلبهن بالعودة !



الامبراطور نيرون

نهض «بونتيوس» رسول قيصر من مقعده ، بعد أن استمع لشكاية المرأة بدون أن يقاطعها وهى تخاطبه باسمها وباسم رفيقاتها ، وساد القاعة صمت قصير ، مزق الرسول سكونه بقوله :

ـ اذا كان قيصر نيرون قدأوفدنى اليكن رسولاووسيط خير ياسيرابا فذلك لانه يعرف الصلة المتينة التى تربطنى بالبلد البعيد الذى جئتن منه ، فان زوجتى كما تعلمن جميعا مصرية من هليوبوليس ، تزوجتها يوم كنت أقيم فى بلادكم الجميلة ، فى عهد الامبراطور السابق كلوديوس ، وهى الآن تقيم معى لى روما ، وقد أصبحت هذه البلاد وطنا ثانيا لها ، تحبه بقدر ما تحب وطنها الاول مصر • وزوجتى وانا يؤلمنا أن تكونى ياسيرابا أنت ورفيقاتك فى هذا القصر ، حزينات كئيبات ناقمات •

فقاطعته المرأة قائلة :

ـ ولكننى يابونتيوس بسطت لك العوامل التى سببت لنا النقمة والكآبة والحزن ، ولست فى حاجة الى التكرار لكى تقتنع بعدالة مانطلب من قيصر •

ـ هل لك أن تفرغى تلك المطالب فى عبارات معدودة ؟

ـ نعم : قل لقيصر اننا نريد الرحيل عن روما والعودة الى بلادنا •

ـ واذا رفض اجابتكن الى ماتطلبن ؟

ـ ننفذ وعيدنا ونضربعن تناولالطعام ابتداء من صباح غد ، فالحياة خارج مصر لم تبق لها فى نظرنا أية قيمة • فاما أن نعود ، واما أن نموت•

ـ ماذا ينقصكن هنا منأسباب الراحة وعوامل لتسلية واللو .

ـ لا ينقصنا شىء •• ولكن ما نتمتع به كله لا يساوى عندنا نفحة من نسيم مصر ، وجرعة من ماء النيل ! اننا نفضل الحرية فى بيوتنا المتواضعة على الأسر فى هذه القاعات الفخمة •

ـ سأحمل رغبتكن الى قيصر ، وأجيئكن برده فى هذا المساء •

***

تسع نساء مصريات اعتصمن فى قاعة من قاعات القصر الامبراطورى بروما ، وأرسلن الى نيرون الحاكم بأمره هذا الانذار : « اما أن تعيدنا الى وطننا واما أن تشاهد موتنا البطىء جوعا، فيكون هذا وصمة عار فى تاريخ ملكك ! » •

فمن هن ؟ ومن أين لهن تلك الجرأة ؟ وكيف فكرن فى تلك الوسيلة المبتكرة للتأثير على قيصر والضغط على ارادته وارغامه على اطلاق سراحهن

«سيرابا» ابنة كاهن مصرى اشتهر بالعلم والتقوى ، ومات مقتولا بيد

جندى رومانى ثمل ، فكان لمصرعه رنة أسى بالاسكندرية ، فى سنة ٥٤ للميلاد ، وحدث مايشبه الفتنة فى أسواق المدينة مما اضطر الحـــاكم الرومانى الى القبض على الجندى وتسليمه الى عمال المرفأ الذين وضـعوا حجرا فى عنقة والقوه فى البحر بعد آن قتلوه ضربا بالعصى .

وكان الرومانيون فى ذلك الوقت حريصين على استرضاء المصريين ، فتلقى الحاكم من الامبراطور الجديد «لوسيوس دوميسيوس نيرو» الذى اشتهر باسم «نيرون» أمرا بأن يدفع الى أسرة الكاهن القتيل مبلغا من المال ويرسل ابنتيه الى روما مع بعض صديقاتهن ليقمن فى جناح النساء بالقصر الامبراطورى مدة من الزمن .

وكانت روما محط أنظار العالم ، ومصر تابعة لها ، وأمنية الرعايا جميعا فى أنحاء الامبراطورية الشاسعة زيارة العاصمة والتمتع بمباهجها .

وسافرت سيرابا ابنة الكاهن المصرى «زرتاسن» الى روما ، ومعهـا اختها «فيلون» العازفة على القيثار ، وخمس فتيات أخريات من بنـــات الاسكندرية المثقفات الجميلات ، واثنتان من الجوارى رفضتا البقاء فى غياب الفتاتين ابنتى الكاهن .

كان نيرون لايزال دون العشرين . ولم تكتمل فى أعماق نفسه بعد تلك الميول الحيوانية ، والقسوة البهيمية ، والرغبة فى ازهاق النفوس وسفك الدماء ، مما جعل معاصرية يقولون عنه أن له «رأسا من حديد وقلبا من رصاص» .

استقبل نيرون الفتيات المصريات بعبارات الترحيب وابتســامات الرضا ، وأنزلهن فى القصر الامبراطورى معززات مكرمات ، وخصص لهن جناحا من ذلك القصر وأمر بأن تجاب رغباتهن أيا كانت . ومرت ســنة كاملة بدون أن تشعر الفتيات بضيق أو حرمان .

وكن يتساءلن : لماذا جاء بنا قيصر الى هذه المدينة ؟ ولماذا لا يسمح لنا بالعودة الى بلادنا ؟ و ... ؟

أسئلة لم تجد جوابا ، ولغز ظل غير مفهوم !

مرت الاعوام تحمل معها تغييرا فى شخصية الامبراطور ، فقد تحول الشاب اللطيف المهذب المثقف ، الى وحش ظامىء للدماء .. الى انسان ليس فى صدره قلب انسان ، ولا فى رأسه عقل انسان ، فهو لايعقل لانه مجنون ولا يشعر لان قلبه خلو من كل عاطفة .

وكان يتفنن فى تعذيب الناس ويبتكر من أساليب الارهاب والارهاق مالا تتفتق عنه الأدمغة المريضة .

ومما عمد اليه نيرون بالنسبة الى المصريات التسع اللواتى انزلهن فى قصره معززات مكرمات مدة ثلاثة أعوام ، ان أصدر أمره فجأة بأن تغلق عليهن أبواب الجناح الذى يقمن فيه ، وتسد بالحجارة ، ولا يبقى غير باب واحد يقف عنده الحراس بأسلحتهم ليمنعوا النساء من الخروج .

حبس نيرون المصريات التسع داخل الحجرات المخصصة لهن ، وأمر بأن يقوم العبيد والجوارى بخدمتهن ؛ ولا يرفضن لهن طلبا ، ولا يحرمن الا شيئين : اثنين : الخروج من جناحهن بالقصر ، واستقبال أحد من الرجال في مخادعهن .

وعبثا حاولت الفتيات التسع أن يعرفن لماذا حكم عليهن نيرون بهذه العقوبة القاسية : أن يبقين حبيسات في قصر فاخر الرياش ، لايذهبن لزيارة أحد ، ولا يأتي أحد لزيارتهن .

وبعد مضى ستة شهور كاملة على بقائهن سجينات في القصر ، عزمن على القيام بمحاولة يائسة للخلاص من تلك الحالة التي لاتطاق .

وطلبن من نيرون أن يصغى الى شكايتهن ، ولكنه لم يزرهن بنفسه ، بل أوفد اليهن صديقه ورفيقه بونتيوس ، الذى يعرفنه ويعرفهن .

واستمع بونتيوس الى سيرابا ، وعاد الى الامبراطور يقص عليه ماسمع .

***

مرت سبعة أيام على الفتيات الصائمات وهن مستلقيات في مخادعهن يرفضن تناول الطعام الذى يحمله اليهن الخدم والعبيد في اطباق من الذهب والفضة .

وساءت حالتهن ، وبدا على بعضهن الضعف والانهيار . وفجأة ، فتح باب الجناح الذى بقى غير موصد على مصراعيه ودخل منه نيرون وخلفه لفيف من الرجال والنساء .

وضحك ضحكة عالية رددها الصدى بين جدران الغرف الصامتة الهادئة .

ودار في داخل تلك الغرف مشهد لم يحدث مثله في قصر ملك : فقد ركع الامبراطور الرومانى الطاغية على ركبتيه امام النساء الصائمات وجعل يلاطفهن ويرجو منهن أن يعدلن عن الصوم ويضعن حدا لهذا الاضراب الغريب . ووقع نظره على قيثارة «فيلون» ملقاة على الارض فوثب اليها ، وأخذها بين يديه وجعل يعزف عليها لحنا شجيا من وضعه ، ويغنى أنشودة من نظمه ، فيها ذكر الشرق ، وذكر مصر ، وذكر النيل والرمال الصفراء والشمس المحرقة .

وتوقف لحظة عن الغناء وقال مخاطبا سيرابا ورفيقاتها :

ـ لن أسمح لكن بالعودة الى مصر الا متى تيسر لى الذهاب معكن اليها .. واذا كنت قد أمرت بأن تغلق عليكن الابواب ، ويحرم عليكن أن تقابلن أحدا في هذا القصر ، فما ذلك الا نزولا على رغبة الآلهة وتنفيذا لارادتها .. وقد جئت الآن بنفسى اليكن لأطلعكن على السر الكامن خلف هذه المعاملة التى عاملتكن بها ، فاسمعن :

وأخذ نيرون قيثارته من جديد وراح يعزف ويتكلم فى آن واحد :

ـ عدت ذات ليلة من نزهة فى ضوء القمر، واستلقيت على كومة من الازهار فوق الشرفة المطلة على حديقة القصر ، وأغمضت عينى .. لم أنم ولكننى لم أكن فى حالة صحو تام .. ورأيت رؤيا .. بدت لى ايزيس ، ايزيس الربة التى يعبدها المصريون ويؤمن بقدرتها الرومانيون ، وقالت لى بلغة غير لغة هذا البلد ، ولكننى فهمتها لأن الربة الجميلة نطقت بها .. قالت لى ايزيس : يجب أن تعد العدة للسفر الى مصر يانيرون ، والاقامة فى الاسكندرية ، والتعبد فى هياكلها ، واصحب معك فى رحلتك القادمة ابنة الكاهن زرتاسن والفتيات المصريات المقيمات معها فى قصرك ، واحرص على راحتهن وسلامتهن .. فلو حدث أن أصيبت واحدة منهن بأذى ، فان نقمتى ستكون عظيمة ، : سانتقم لهن منك فأنزل بك العذاب .

هذا ماقالته ايزيس .. وقد عولت منذ تلك الليلة على الذهاب الى مصر ، ولكننى خفت عليكن ، وخشيت أن يلحق بكن أذى فأمرت بحبسكن فى هذا القصر .

هذا هو السر الذى باح به نيرون، والذى أثار عند الفتيات الصائمات الضحك والسخرية ، فتجرأت سيرابا وقالت :

ـ أمن أجل المحافظة علينا ، تأمر بحبسنا ؟ . . أمن أجل تحقيق الرغبة التى أفضت بها اليك ايزيس المعبودة ، تسىء الى ابنة الكاهن الذى كان يخدم فى هياكلها ، والذى قتله جنود روما بالاسكندرية ، والى رفيقاتها المصريات اللواتى نزلن فى ضيافتك مدة ثلاثة أعوام كاملة ؟

ـ أردت ان أصون حياتكن من الأذى .

ـ فالحقت بنا الأذى كله ، وحرمتنا من حريتنا .

ـ ماذا تطلبن الآن ؟

ـ الخروج من هذا القصر .

ـ سأسمح لكن بالخروج .

ـ والعودة الى بلادنا .

ـ لا .. ستعودين الى مصر ، وستعود اخواتك أيضا .. ولكن فى رفقتى أنا ، عندما يتيسر لى السفر تحقيقا لرغبة ايزيس .

ـ لن نبقى يوما واحدا هنا برغم ارادتنا .

ـ ولكنها ارادتى أنا !

ـ ارادتك لا يحسب لها حساب بالنسبة الينا .

وصاح نيرون صيحة كزئير الأسد ، ووثب رافعا قيثارته ليضرب بها المصرية التى تجرأت ورفعت صوتها فى وجهه وخاطبته بتلك اللهجة ولكنه تراجع فجأة ، وقد تذكر ماقالته له ايزيس يوم خاطبته وأوصته بأن يحافظ على المصريات ويدفع عنهن كل أذى .

خاف الوحش ان يضرب ضربته ، فتحل به فيما بعد لعنة ايزيس وتنزل عليه ضرباتها .

وركع نيرون مرة أخرى هادئا متوسلا ، ووقف رفاقه من الرجال والنساء مبهوتين! •

وراح يعرض على سيرابا أن يهب لهـــا قصرا عـلى أحد تلال روما لتقيم فيه مع رفيقاتها على شرط الا يخرجن منه، فرفضت وعرض عليها البقاء فى قصره على شرط ألا تتعدى بابه الخارجي مع رفيقاتها فرفضت. وعرض عليها الخروج معهن الى حيث تشاء على شرط ألا يغادرن مدينة روما وألا يسرن فى طرقاتها الا برفقة الحراس والجنود ، فرفضت •

وغضب نيرون وانصرف •

وعاودت سيرابا ورفيقاتها الاعتصام فى احدى القاعات والاضراب عن تناول الطعام •

ومر يوم ثامن ، ويوم تاسع ، ويوم عاشر •

وبلغ الاعياء مبلغه من الصائمات العنيدات •• وذهبت كل التوسلات سدى ، فلم يصغين لنصائح الناصحين ، ولا لرجاء الراجين ، ولا لوعيد المتوعدين !

وكانت سيرابا تقول لكل من جاء يخاطبها طالبا منهـــا الكف عن الاضراب :

ـ لن نكف عنه الا اذا تقررت عودتنا الى وطننا • والا فاننا سنموت من الجوع هنا ، وتحل بالطاغية نقمة الربة ايزيس ، التي ستنتقم لنا منه تنفيذا لما قالته يوم تراءت له على شرفة القصر •

وخاف نيرون أن يحدث ماهددت به الفتاة المصرية ، واستولت عليه الحيرة أمام الحملان التى تنمرت •

وأدركت سيرابا ما يدور فى خلد نيرون ، وما يتلاطم فى صدره من مخاوف ، فعولت على استغلال الظروف واغتنام الفرصة ، وتحطيم السلاسل الذهبية التي قيد بها الطاغية حريتها وحرية صويحباتها ، والانطلاق من ذلك السجن البراق الى جو لاتحده جدران ولا تسد منافذه أبواب •

ووهن نيرون أمام ذلك العناد ، واقتنع بأن الوسيلة الوحيدة لتجنب غضب ايزيس ، والوقاية من انتقامها ، هى صيانة أولئك الفتيات والمحافظة على سلامتهن ، ولا يمكن أن يتم ذلك الا باعادة حريتهن اليهن ، واعادتهن الى وطنهن ، على أن يلحق الامبراطور بهن فى أقرب فرصة ، لكى تتحقق الرؤيا ••

ووضع نيرون سفينة تحت تصرف الصائمات ، فنقلن اليها ، ولم يذقن طعاما الا بعد أن أقلعت السفينة بهن الى الاسكندرية ، وكان عليهـا حراس وأطباء وخدم وعبيد ظلوا جميعا فى مصر تحت تصرف سيرابا واختها والفتيات الأخريات ، اللواتى قطع نيرون عهدا على نفسه بأن ينفق عليهن من بيت المال ، وان يوافيهن فى مصر عندما يستطيع الى السفر سبيلا !

واستعادت الفتيات حريتهن ، وعشن فى هناء وسعادة فى أرض وطنهن ،وتمتعن بضعة أعوام بما كان نيرون يغدقه عليهن من عطاء سخى لايقف عند حد .

ومرت أعوام أخرى ، ونيرون لم يستطع السفر لتحقيق رغبة ايزيس .

وفى يوم ما بلغه خبر من الاسكندرية سبب له الحزن وبعث فى نفسه الخوف : فقد حمل اليه رسول من الحاكم الرومانى نبأ مصرع «سيرابا» ابنة الكاهن زرتاسن بيد جندى رومانى ، مثل أبيها فى أحد شوارع الاسكندرية .

وقد سلم القاتل الى الشعب فقتله وألقى جثته فى البحر .

ووجم نيرون .

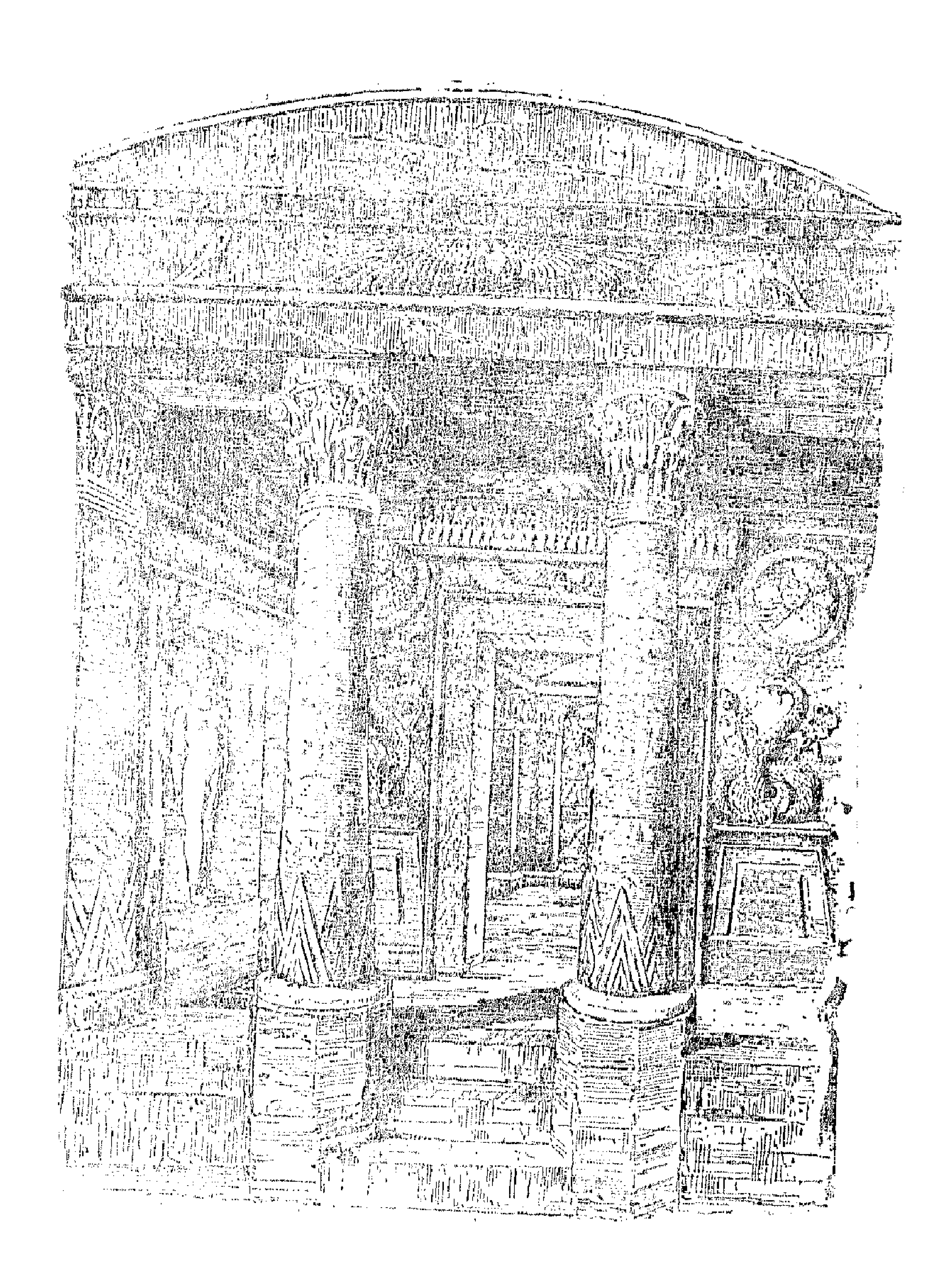
لقد اصيبت سيرابا بأذى قبل أن يتمكن الامبراطور من القيام برحلته الى مصر ، نزولا على ارادة ايزيس .

فهل تتحقق الرؤيا !

لقد تحققت .. فبعد اسبوع واحد من وصول الخبر الى روما ، سقط قيصر قتيلا بخناجر المتآمرين . وكان ذلك فى سنة ٦٨ للميلاد ، وكان نيرون فى الحادية والثلاثين من العمر ، قضى منها أربعة عشر عاما على عرش الامبراطورية .

التنكيت القاتل

اذا كان التنكيت يروح عن النفس ويدخل اليها السرور ويحملها على المرح ، فانه قد يؤدى احيانا الى عواقب وخيمة • وهذه قصة رجل قتله التنكيت من الضحك ! •



من آثار الاغريق والرومان بالاسكندرية

التفتت أونيسيا الحسناء الى زبانية قيصر الذين كانوا يسوقونهــا أمامهم ، مع رفيقها هليوس ، وسألتهم :

ـ ظننت انكم تقودوننا الى السجن ، فاذا بكم تدخلوننا قصرا يحاكي قصور الامبراطور في روما ، وقصور البطالسة في الاسكندرية ٠

فأجابها أحدهم :

ـ انك سجينة القائد فاتينيوس ايتها الحسناء ، وقد أراد الامبراطور تيبيريوس أن يكون السجن أهلا للسجين والسجان معا ، فأمر بارسالك الى هذا القصر الذي شيده في هذه الجزيرة لقضاء وقت الراحة والسرور فيــه ٠٠

وذهب الجنود بالفتاة ورفيقها القزم هليوس ، الى الجناح الذي أعد لهما في ذلك القصر ، القائم فوق صخر شاهق الارتفاع ، يشرف على البحر وعلى مناظر جزيرة كابري الساحرة ٠

شيد الامبراطور تيبيريوس ذلك القصر وجعله مسرحا لملذاته فكان يقضي فيه الايام والليالي ، بين لفيف من أصدقائه ورفاقه ، وعشرات من الغيد الحسان ، اللواتي يحملهن اليه رسله وقواده من أطراف الامبراطورية الواسعة ٠

وعندما استولى عليه الضجر وانتابه الملل من السلطة والصولجان ، هجر روما وضجيجها ، وترك مقاليد الحكم أمانة في أيدي أعوانه ، وانصرف الى الانغمــاس في غمرة الملذات ، في قصر كابري حيث قضى السنوات الخمس الاخيرة من سني ملكه ٠ وقد وقعت الحادثة التي نحن في صددها في بحر هذه السنوات الخمس ٠

* * *

جلس تيبيريوس كلوديوس نيرو على عرش روما من سـنة ١٤ الى سنة ٣٧ بعد الميلاد ٠ وتوفي في ١٦ من مارس من تلك السنة في جزيرة كابري الجميلة ٠

وكانت مصر في عهده ولاية رومانية ٠ ضمها الامبراطور أوغسطس الى أملاك روما بعد موت كليوباترة ٠ وكان تيبيريوس في حـكمه وادارة شئون ممتلكات عرشه على جانب من العدالة والانصاف ٠ فقد بلغه مرة أن حاكم مصر اميليوس ريكتوس يضطهد السكان ويرهقهم ويطاردهم لجباية الأموال والضرائب منهم ، فكتب اليه يقول :

ـ « أريد منك أن تجز صوف القطيع فقط لا أن تسلخ جلده ! » وفي هذا الأمر مافيه من الاعتدال ، اذا قسناه بأساليب الحكم في ذلك العصر ! ٠

وكان اشهر حكام مصر الرومانيين فى ظل تيبيريوس القائد كايوس غاليوس ، الذى ظل يدير شئون البلاد باسم الامبراطور من سنة ١٦ الى سنة ٢١ بعد الميلاد ٠

وقد غضب عليه تيبيريوس فأراد الحاكم أن يسترضيه فأرسل إليه الهدايا النفيسة وسربا من النساء والعبيد والحيوانات النادرة ، ولكن ذلك لم ينقذه من غضب سيده ٠ فقد أصدر تيبيريوس أمره الى رجال حاشيته بأن يوزعوا الهدايا والنساء والعبيد والحيوانات على من يرغب فيها من رفاقه فى المسرات ٠ فكان له ماأراد ٠

وكانت الفتاة «أونيسيا» والقزم «هليوس» من نصيب القائد «فاتينيوس أقرب المقربين الى الامبراطور وأكثر الرومانيين انصرافا الى عبادة الشهوات، وأبعدهم قبحا فى خلقه وخلقه !

* * *

مرت ثلاث سنوات على المصرية الحسناء فى كنف ذلك الرومانى الماجن ، ذاقت فى خلالها العذاب أشكالا وألوانا ، وعرفت الآلام النفسية المبرحة التى لايشعر بها الا كل من فقد أهله وحريته وبلاده ٠

وفى ذات يوم جلست أونيسيا على مقعد وثير ، فى قصر سيدها ، وارسلت فى طلب هليوس ، ودار بين الاثنين حديث ذو شجون ، عن مصر وبحرها ونهرها وسهولها ومعابدها وأهلها ومحاسن الحياة فيها ٠

ـ هليوس ، انني أجعل مابقى لى من العمر لقضاء يوم واحد فى الاسكندرية ٠ ما السبيل الى الخلاص من هذه الحالة التى نحن فيها ؟

خففي عنك ياسيدتى ٠ انك لاتزالين فى ميعة الصبا ٠ وانك لجميلة ساحرة ٠ نعم لقد كان جمالك البارع سببا لشقائك فوقعت فى مخالب فاتينيوس الثقيل السكير السمج ٠ وقد ينقذك جمالك من مخالبه كما دفع بك اليها ٠ وثقى اننى لن أذوق الراحة قبل أن أطمئن الى راحتك أنت ٠ فلست أنا غير قزم مهرج حقير ٠ وليست حياتى بشىء يذكر بالنسبة الى حياتك أنت ٠ فان جدك كان حاكم القصر فى عهد كليوباترة وكان أبوك من كبار الاغنياء فى الاسكندرية ٠ ولو لم يضرب بسيفه ضابطا رومانيا حاول الاعتداء على امرأة مصرية من بنات الشعب ، ماقبض عليه الرومانيون وأعدموه ، وما وقعت انت سبيبة أسيرة بين أيديهم ٠ وانه لمن حسن حظى أنا ، ان كنت مثلك من نصيب فاتينيوس ، لكى أظل بالقرب منك ، أقوم بخدمتك ، وأضحك الرجل ومدعويه بتهريجى ونوادرى وتنكيتى ٠

ـ حقا انك تخفف كثيرا من جيل هذه الحياة عن منكبى ياهليوس ولولاك ما استطعت احتمال ألمى وعذابى ٠ لقد سماك الناس هليوس تحقيرا منهم ، اذ أن اسم «الشمس» هذا لاينطبق على جسمك الهزيل ورأسك الضخم وعينيك الغائرتين وظهرك المقوس ٠ ولكنه اسم ينطبق على روحك العالية وشعورك الفياض وقلبك الابيض ـ ياعزيزى ، يابن بلدى ياهليوس !

ـ لقد أخطأت أمي ياأونيسيا عندما شتمت فاتينيوس وطردته من حجرتك . وقد علمت اليوم انه أمر بارسالنا نحن الاثنين الى السجن، ومن يدرى الى أى سجن ؟

ـ اننى لاأخاف السجن ياهليوس، فهوأحب الى من قصر فاتينيوس هذا ، وقد عزمت على أمر ولا أخفى عنك عزمي ، أنت ياصديقى الوحيد .

ـ وعلى أى أمر عزمت ياصديقتى ؟

ـ لابد أن يأتى فاتينيوس الى السجن لرؤيتى ، فهو يحبنى بقدر ماأكرهه واذا ماجاء ...

ـ اذا ماجاء ؟

ـ اما أن أقتله ، واما أن يقتلنى .

***

لكن أونيسيا وهايوس لم يلقيا فى اعماق سجن من سجون روما المظلمة بل أن الجنود ساقوهما الى قصر الامبراطور تيبيريوس فى جزيرة كابرى .

كان فاتينيوس قد دعى مع لفيف من رفاق المسرات الى قضاء أيام فى ذلك القصر ، وأرسل الامبراطور يقول لهم مع حامل الدعوة : « على كل منكم أن يأخذ معه المرأة التى يريد» والح على فاتينيوس بأن يأخذ معه القزم المهرج المصرى ، لكي يضحك المدعوين بنوادره وحركاته وتنكيته .

وبدل أن ينفذ فاتينيوس تهديده بسجن أونسيا ورفيقها هليوس ، أرسلهما فى حراسة الجند الى كابرى .

وعندما استقر بهما المقام في القصر الشاهق المشرف على البحر ، قال هليوس لصديقته :

ـ أونيسيا . لقد فكرت فيما كنت تقولينه لى قبل مجيئنا الى هنا . من عزمك على الفتك بالرجل الذي يعذبك . فاصغي الى واعملي باشارتى عندما يعقد القوم مجلسهم لالتهام الطعام والاكثار من الشرب وغير ذلك مما ينصرفون اليه فى مثل هذه المجالس ، كونى فرحة مرحة ، وكلى واشربى واضحكى .. نعم ، اضحكي كثيرا واحملي فاتينيوس على الاكثار مثلك من الضحك ، ودعيني انفذ الخطة التى رسمتها ، لاننى سأنقذك من أيدى هذا الرجل بدون أن تعرضي حياتك للخطر !

ـ كيف ذلك ؟

ـ انه سريع التأثر يغرق فى الضحك كلما أتحفته بنادرة من نوادرى وأذكر أن الطبيب فتيليوس قال لي يوما : «رويدك ياهليوس . ان سيدك ضخم الجسم كثير الشحم ضعيف القلب . فاذا ما أكثر من الضحك ، بعد الاكثار من الأكل والشرب ، فان حياته ستكون في خطر » .

ـ فهمت ... فهمت ....

سيدتي .. ان هؤلاء الرومانيين يقرون لنا نحن المصريين بأننا سريعو الخاطر نحسن التنكيت . وسوف يكون التنكيت المصري مفيداً لنا في هذه المرة ، فيعيد الطمأنينة الى نفسك ، وقد يعيد اليك الحرية .

***

بعد يومين ، وصل تيبيريوس الى كابري ، ومعه المدعوون الذين وقع عليهم اختياره ، وعددهم لايتجاوز أصابع اليدين ، وبينهم فاتينيوس بقامته القصيرة وبطنه المندلق وشعره الاحمر ووجهه المنقوش بالجذام وظمئه الدائم الى الملاذ .

ومنذ وصولهم الى القصر ، بدأ رفاق قيصر يستعدون للمآدب والسهر فذبح الخدم الذبائح . وأوقدوا النيران فى المطابخ . وأعدوا لقيصر وصحبه المقاعد والأسرة والموائد على شرفة القصر الكبرى ، أمام الصخرة التى أطلقوا عليها اسم « صخرة الموت » لأن تيبيريوس كان يأمر جنده بأن يلقوا من فوقها فى البحر كل من حلت به النقمة القيصرية .

كان ذلك فى صيف سنة ٢٤ بعد الميلاد ، وكان نسيم البحر يداعب أفنان الأشجار في حديقة القصر الغناء ، ويحمل الى أرجاء القصر نفحات من عبير الأزهار والرياحين . ثم طلع القمر فأغدق أشعته الفضية بسخاء على ذلك المنظر البديع .

ودبت الحياة شيئا فشيئا في الشرفة الفسيحة ، وارتفعت الأصوات بالهتاف والأناشيد عندما أطل قيصر على مدعويه ، ثم اختلط بهم وجلس بينهم على سريره الارجواني .

ودعيت النساء فأقبلن واحدة واحدة ، وكل منهن تحاكي البدر جمالا والحور سحرا ، وبينهن الرومانية والغالية والمصرية والسورية والفينيقية والافريقية والاغريقية . فكأن الامبراطور أراد أن تجتمع فى تلك الليلة ، فى قصره ، جميع الاقطار الخاضعة لصولجانه ، المؤتمرة بأمر روما ، فى اشخاص أبرع نسائها حسنا ودلالا .

ودار الساقون بالكئوس والأقداح ، وغاص الآكلون الى أكواعهم فى اللحوم المكدسة على الاطباق ، الغارقة فى بحر من الشحم والسمن . وجعلت النساء ينثرن الورد والياسمين على رءوس الرجال . ودعى العبيد الى مضمار المصارعة فتماسكوا أزواجا ، وأمر قيصر بأن يعتق الغالبون منهم ويصبحوا أحرارا ، وبأن يلقى المغلوبون الى البحر من أعلى صخرة الموت !

ولعبت الخمر بالرءوس ، وهاجت الشهوات فى النفوس . فاستحال الامبراطور ومدعووه الى مخلوقات ليس بينها وبين البهائم فارق .

وصاح فاتينيوس :

ـ أين اونيسيا .. الى ياأونيسيا .. فقد عفوت عنك اكراما لقيصر !

وصاح تيبيريوس :

ــ أما قلت لك يافاتينيوس انك لن تقوى على فراقها · لقد أحسنت صنعا فى اختيار هذا المكان سجنا لها !

وأسرعت أونيسيا آلى الرجل وطوقت عنقه بذراعيها ،وتمتمت فى أذنه :

ــ أحبك يافاتينيوس !

فنهض الرومانى كالثور الهائج ، يتمايل يمينا ويسارا ، وأرسل فى أرجاء المكان صحية ذكرت أولئك القواد بصراخ الوحوش الكاسرة فى ملاعب روما :

ــ أسمعتم ؟ أسمعتم ؟ قالت انها تحبنى !

فكررت أونيسيا الكلمة الساحرة :

ــ أحبك ! نعم ·· أحبك !

ثم همست قائلة :

ألا تريد أن يسمعك هليوس طائفـــة من نوادره الليلة ؟ انه فى انتظار ···

ولكن فاتينيوس لم يدعها تتم كلامها ، بل صاح موجها كلامه الى الامبراطور :

ــ قيصر ! سنضحك الليلة كثيرا · فان القزم المصرى لعلى استعداد للتهريج والتنكيت ·

ورددت جوانب القصر ودهاليزه وشرفاته صوتا واحدا كالصدى ، أرسلته تلك الصدور دفعة واحدة :

ــ هليوس ! هليوس ! هليوس !

***

دخل هليوس وبيده افعى صغيرة الحجم ، وقد التفت على ذراعه ·· وعلى رأسه غطاء صنع على صـــورة الهرم · وقد ارتدى ثوبا مصريا زاهى الألوان ··

وقال قيصر :

ــ أضحكنا ياهليوس !

وردد الجميع أيضا :

ــ أضحكنا ياهليوس !

فانطلق المصرى القزم بين الموائد ، يصعد فوقها أو يمر تحتها ·· يداعب رأس هذا ويدغدغ بطن ذاك من المدعوين ، والنوادر تتدفق من فمه كالسيل ، فلا ينتهى القوم من الضحك لنادرة حتى يلحقها القزم بغيرها ، والمدعوون يستلقون على ظهورهم الواحد بعد الآخر ·

وكان هليوس يكثر من التهريج ويبدع في التنكيت كلما وصل أمام فاتينيوس ، على حين أن أونيسيا تصب الخمر في كأس الرجل وتسقيه بلا انقطاع ، ثم تقهقه في وجهه وتردد :

ــ اضحك ! اضحك أيها الحبيب فستنام الليلة ألذ نومة عرفتها !

وكان فاتينيوس يضحك ...

وفجأة بينما كان الرجل غارقا في ضحكة أشد من سابقاتها ، وقد احمر وجهه ، وانتابته رعشة لم يعد قادرا معها على رفع كأسه بيده صاح هليوس قائلا :

ــ أتريدون أن تروا كيف ماتت الملكة كليوباترة حبيبة انطونيوس ، من لسعة الحية .

فأجاب الجميع :

نعم .. نعم ...

وصرخ المصرى قائلا ، وقد رفع الأفعى فوق رأسه وتظاهر بالوثوب على فاتينيوس :

ــ هكذا ... هكذا ... فماتت ..

ولكن صرخة انبعثت من صدر فاتينيوس ، وسقط الرجل على الارض لاحراك فيه .

وأحاط به الخدم والعبيد ، وحملته النســـاء بين أيديهن ، والتفت المدعوون بعضهم الى بعض ، متسائلين مستفهمين ..

ونهضت أونيسيا من مكانها ، وقالت بصوت متهدج :

ــ قيصر ! لقد مات صديقك وحبيبي فاتينيوس !

وساد سكوت رهيب .

لكنه كان قصيرا ..

فقد عز على تيبيريوس قيصر أن ينغص عليه حيث ــ أيا كانت صلته به ــ لذة تلك الليلة الساهرة والمأدبة الفاخرة ، فرفع يده وأصدر أمره :

ــ انقلوا جثة فاتينيوس المسكين الى الحجرة التى كانت معدة لنومه ولينقل غدا الى روما لدفنه فيها .

ثم خاطب الحسناء المصرية قائلا :

ــ أما أنت ياامرأة ، فان بقاءك بيننا سيذكرنا دائما بصديق وفى ورفيق أمين . ولا أريد بك شرا لانه كان يحبك ولانك كنت تحبينه .. فاخرجى ! وغدا ستبحرين في مركب من مراكبى الخاصة الى بلادك ومعك هذا القزم الذى كان تهريجه وتنكيته الليلة سببا لموت فاتينيوس .

وعاد قيصر الى الجلوس على سريره ، وقال :

ـ أيها الرفاق ! لم يحدث الليلة ما يمنعنا من الاستمرار فى الأكل والشرب والملاذ ٠

***

وفى اليوم التالى أقلعت من ثغر كابرى سفينتان :

سفينة تحمل جثة فاتينيوس الى روما ٠

وأخرى تحمل أونيسيا ورفيقها القزم هليوس ، الذى بر بوعده فأنقذها من الأسر ، وخلصها من سجانها ، وأعاد اليها حريتها ، ورجع بها الى وطنها الاسكندرية دون أن يعمد في ذلك كله الى سلاح غير سلاح التنكيت الممزوج بالتهريج ٠

صديقة الشهداء

تمردت الحسناء على أبيها ، وتمسكت بعقيدتها
واخلصت لأصدقائها، فخنقها أبوها الروماني بيده



عمود ديوكلسيانوس بالاسكندرية ، سمى خطأ عمود
« بومبيوس » ويعرفه السكان باسم « عمود السوارى »

دفع الى العالم الفاصل بضع ورقات مضمونةفى كراسة منالكرتون ومكتوبة بلغة فرنسية عقيمة وقال :

ــ هذه ترجمة مخطوط يبدو أن أصـله مكتوب باللغة اليونانيـة القديمة ، كما يبدو أيضا ان الاصل كان ناقصا أو مشوها أو غير واضح المعالم ، لان الترجمة متقطعة، فيها بعض الابهام والغموض ، ولكنموضوعها على كل حال يستحق الاهتمام · فهل لك أن تنقلها الى العربية ؟

وآنا أقدم للقارىء فيما يلى ترجمة تلك الترجمة الفرنسية للمخطوط اليونانى ·

***

جاء فى ترجمة المخطوط القديم :

« كان «بوروس»يحكم الاسكندرية باسم الامبراطور «ديوكلسيانوس قيصر » ينفذ رغباته ، بهمة ونشاط المتزلفين الذين لايأنفون من ارتكاب الجرائم ارضاء لسادتهم ·

« وكانت لبوروس ابنة وحيدة تدعى (بولا) لم تتزوج بالرغم من أن السن تقدمت بها أكثر مما كان الرومانيون ينتظرون لكى يزوجوا بناتهم· وعبثا حاول بوروس أن يجد لها بين ضباط الجيش الرومانى بالاسكندرية زوجا ترضى به ·

« وكانت بولا تنظم الشعر وتعزف على القيثارة وتغنى بصوت شجي الاناشيد التى تنظم ابياتها بنفسها . وكانت تنفر من عشرة الناس ولا تتصل الا بعدد قليل من الاشخاص الذين لا يعرف أبوها عنم غير أنهم من المصريين البارعين فى حياكة الملابس وصنع الادوات الخوصية .

« ويرجع عطف ديوكلسيانوس على بوروس الى عهد ثورة اخيليوس بالاسكندرية ، فقد أعلن أخيليوس العصيان ، وكان حاكما لمصر كلهـا وأرسل ديوكلسيانوس حملة قوية لاخماد الثورة ، فكان بوروس واحدا من السكان الذين ساعدوا على الفتك باخيليوس وأنصاره ·

« ولما أطلق ديو كلسيانوس أيدى جنوده فى نهب المدينة وسلبهـا وحرق بيوتها كان بوروس أيضا واحدا ممن عاد عليهم ذلك بفوائد كثيرة . وأصبح الرجل من كبار اغنياء الاسكندرية .

« وكافأه ديوكلسيانوس فيما بعد بتعيينه فى مناصب رفيعة ، حتى وصل الى منصب حاكم الاسكندرية »

***

أتوقف هنا عن النقل لأقول على سبيل الايضاح :

جلس ديوكلسيانوس على عرش روما فى سنة ٢٨٤ للميلاد وأصله جندى بسيط رفعته الأقدار والمواهب على السواء الى أعــلى منصب فى الامبراطورية •

وثار عليه أخيليوس فى مصر وأعلن نفسه فيهــا ملكا ، ثم غلب على أمره سنة ٢٠٢ وفى عهد ديوكلسيانوس كانت المسيحية تغزو النفوس فى الشرق والغرب على الســواء فانصرف الامبراطور الى اضطهاد المسيحيين ، وظل يضطهدهم بضعة أعوام حتى أفنى منهم آلافا وآلافا فى مختلف أنحاء الامبراطورية وفى مصر على الخصوص .

وقد اشتد اضطهاد ديوكلسيانوس للدين الجديد من سنة ٣٠٣ الى سنة ٣٠٥ ، وهى التى تنازل فيها عن العرش ، وعاش فى عزلة تامــة ببلدته «سالونى» بايطاليا حيث انصرف الى العناية بحديقته •

وفى الاسكندرية عمود أقيم فيها لتخليد ذكرى ديوكلســيانوس ، أقامه أحد حكام المدينة ، وسماه المؤرخون «عمود بومبيوس» لانهم قرءوا بين ماتبقى من الكتابة المحفورة عليه حرفى « ب ، و » فاعتقدوا أن القائد الرومانى بومبيوس ، الذى هرب الى مصر فى عهد كليوباترة ، هو الذى أقامه بالمدينة ، ولكن بومبيوس لم يفعـــل شيئا من هـــذا ولم يترك بالاسكندرية أثرا •

ويعرف أهل البلد هذا العامود باسم «عمود السوارى» •

ولنعد الآن الى ترجمة المخطوط :

« كان بوروس عونا لديوكلسيانوس فى اخماد ثورة اخيليوس • وكان له فيما بعد عونا فى تشريد اتباع المسيح والفتك بهم ووضع حد لانضمام الناس الى حظيرة الدين الذى يبشر به رؤساؤهم •

« ولما أمر الامبراطور جنوده بذبح النصارى المصريين واليونانيين على السواء فى مدينة الاسكندر ، كان بوروس يشغل منصب الحاكم ، فوجد الفرصة سانحة لاظهار ولائه لقيصر مرة أخرى ، كما أظهره من قبل يوم اشترك فى اخماد ثورة اخيليوس ، التى كان الغرض منها استقلال مصر عن الامبراطورية الرومانية •

«وكان ديوكلسيانوس يخشى أن يفعل النصارى فى الاسكندرية ماكان أخيليوس ينوى أن يفعله يوم أعلن العصيان على روما : أى أن يستقلوا عن سيدة العالم فى ذلك الوقت ، ويجعلوا من مصر دولة لاتعترف بسلطان روما ، كما حدث من قبل •

«أرسل الامبراطور الى عملائه ومن بينهم بوروس ، يقول : اذبحوهم عن آخرهم ولا تتركوا منهم رجلا أو امرأة أو شابا أو رضيعا على قيـــد الحياة • واهدموا اماكن العبادة التى يختلفون اليها ، وأحرقوا بيوتهـــم كى لا يبقى منهم أثر بعد اليوم •

« ونفذ العلماء والحكام والزبانية أوامر قيصر ، فسالت الدماء فى شوارع الاسكندرية ، وتحولت أرضها الى مقبرة •

« ولم يقاوم المسيحيون ولم يقابلوا القوة بالقوة والعنف بالعنف لانهم كانوا أضعف من أن يستطيعوا المقاومة ، ولم يكن لديهم سلاح يقابلون به سلاح جلاديهم .

« وحاصر الجند فريقا منهم في المكان الذى نصب فيه بورروس « عمود الخلد » تزلفا لقيصر . ومن سخرية الزمن أن يمر الحاكم فى آن واحد أمام عموده ، ويرى جنوده وهم يضربون الهاربين ويجمعونهم حول العمود ليذبحوهم كما ذبحوا غيرهم .

«وكانت مفاجأة وقف الجنود أمامها مذهولين حائرين ، عندما اقتحمت الصفوف امرأة على وجهها خمار . واتجهت الى بورروس ، ووقفت أمامه ورفعت الخمار عن وجهها ، فاذا هى ابنته بولا ، التى كانت تدين بالمسيحية سرا وتخفى أمرها عن أبيها ، وتمارس دينها مع رفاقها ورفيقاتها فى داخل دار الحاكم ، حيث حولت احدى الحجرات الى معبد للصلاة .

« وأرادت الفتاة أن تشفع للهاربين كى لا يقتلهم الجند . ولكن بورروس لم يجرؤ على اصدار أمره بالعفو عنهم اكراما لابنته ، وسمع الجنود يقولون له : اذا كانت ابنتك من أتباع الدين الجديد فلابد أن تموت مع الآخرين !

« وأشار بورروس الى الجند بأن يتريثوا ، واقترب من ابنته ، وخاطبها على مسمع من الناس قائلا لها أن تجاهر أمام الجمع المحتشد هناك بأنها ليست مسيحية ، وأنها باقية على ولائها لآلهة روما ، ولا علاقة لها باولئك النصارى غير علاقة الصداقة مع بعض منهم .

«ولكن الفتاة صاحت قائلة لأبيها ولمن حولها من الناس، انها صديقة الذين يدينون بالدين الجديد لانها هى أيضا تدين به ، وأنها صديقة الشهداء الذين ذبحهم الجند فى أنحاء المدينة وتود لو لحقت بهم فاستشهدت مثلهم فى سبيل عقيدتها .

« وفار فائر الحاكم لسماعه هذه الكلمات تنطلق من فم ابنته الوحيدة الحبيبة ، فوثب عليها ، وقبض بيديه على عنقها ، وصاح بها قائلا انه يأمرها بأن تجحد بذلك الدين فى الحال ، والا فانه يخنقها بيده كى لا تلحق به وبأسرته عار الخروج على ارادة قيصر ودين الامبراطورية .

«فكان جواب الفتاة أنها لن تجحد بدينها وانها تتقبل الموت من يد أبيها فى سبيل ربها !

« وخنق بورروس ابنته ، وصاح بالجند قائلا لهم أن يذبحوا ذلك القطيع ويحولوا ميدان العمود الى مقبرة تكون جثة ابنته أول جثة تلقى فيها . وتعلقت به الانظار وهو يغطى وجهه بطرف ردائه ويبتعد على ظهر جواده

« وفى ذلك المكان ، حول قاعدة العمود ، ذبح الجند مائة رجل وامرأة أو أكثر ، واختلطت جثثهم فى حفرة حفرها القتلة فى الميدان ، ومن بينها جثة بولا ابنة بوروس . »

***

هذا ما جاء فى الوريقات التى سطرت عليها ترجمة المخطـــوط اليونانى فنقلتها كما هى محاولا قدر المستطاع أن أزيل عنهـا الابهـام والغموض ...

ويبدو أن الذى كتبها كان معاصرا لذلك العهد : او انه كان سمع القصة ممن عاصر مذابح الاسكندرية .

فهل عمود السوارى ، أو عمود بومبيوس ، هو عمـود الخلد الذى نصبه بوروس قاتل ابنته بولا ، التى ابت الا أن تظل وفية لاصدقائها حريصة على أن يكون مصيرها كمصيرهم ، أمينة عـلى الدين الذى اعتنقته فحل فى قلبها محل عبادة الاصنام ، والولاء لآلهة تقر سفك الدماء ؟

وهل حرفا « ب و » اللذان جعـلا العلماء والباحثين يعتقدون أن « بومبيوس » هو ناصب ذلك العمود بالاسكندرية ، هما الحرفان الاول والثانى من اسم « بوروس » الحاكم المتزلف والاب القاتل ؟

(تم الكتاب)

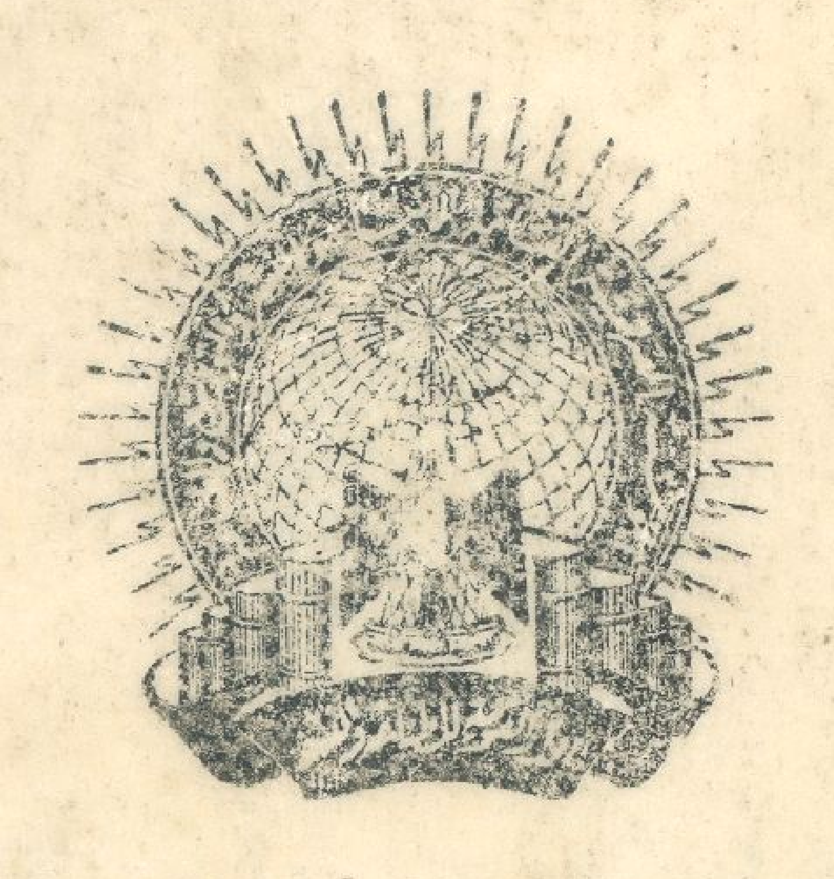
فهرس



١٥٧ شارع عبيد – روض الفرج

٤٠٥٨٨ – ٤٠٨١٤

تليفون ٤٠٧٥٣ – ٤١٠١٢



الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عتبية - روض الفرج

تليفون { ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤ }

العدد ٣٦